من الأرشيف السري للثقافة المصرية

غالي شكري

من الأرشيف السري للثقافة المصرية

تأليف
غالي شكري

هنـــداوي

من الأرشيف السري للثقافة المصرية

غالي شكري

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٣٢٨٤ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر هذا الكتاب عام ١٩٧٥.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة لأسرة السيد الدكتور غالي شكري.

المحتويات

مقدِّمة الأعمال الكاملة للدكتور غالي شكري	٧
مقدمة	٩
الأدباء يعقدون مؤتمر جنيف	١٣
أين كان توفيق الحكيم والمثقفون في قاع الجحيم؟	٢٥
دار صحفية أم سفارة أمريكية؟!	٣٥
جمال عبد الناصر	٤٥
... وسقط آخر العمالقة!	٥٥
مؤامرة ١٩٦٥م نجحت في ١٩٧٥م	٦٩
خاتمة	٨٩

مقدِّمة الأعمال الكاملة للدكتور غالي شكري

بقلم الدكتور وائل غالي

ربما يقودنا الإعلان عن استيائنا من كتابة «المقدِّمات» إلى البحث عن صلةٍ نفرض بها أفكارَنا على قارئ النقد. ليس لديَّ ما أقوله للقارئ إذا لم تتمكَّن تجربةُ «غالي شكري» النقدية والأدبية والثقافية والسياسية من القيام بهذه المهمة من تِلقاء نفسها. ولعل لغة الناقد القادرة على الإقناع هي مقالته النقدية لا ترجمته لمقاله. وأنا لا أحاول هنا أن أتدخَّل في العلاقة بين القارئ وهذه المقالات والدراسات، التي تُمثِّل حصيلة نصف قرن من بحث الراحل «غالي شكري» المتواصِل عن منهجٍ للبحث النقدي الجاد، ولكني أطمح إلى أن يحقِّق القراء والنقاد رغبتي في اعتبار هذه المجلَّدات الطبعةَ الأولى الحقيقية من أعمال الناقد والمفكِّر المصري الراحل «غالي شكري» (١٩٣٥–١٩٩٨م).

كان من أهم هموم «غالي شكري» العثورُ على معايير يتفق عليها النقاد، لإقرار نجاح العمل الأدبي والفني.

لم أُقدِم على قَطْع أي جزءٍ من أجزاء جسده النقدي، في هذه الطبعة الأولى من أعماله، لكن ما دام الناقد غائبًا، فلا بد من أحدٍ يُشرف على نِتاجه. ليس صحيحًا أن كلَّ ما يقوله الناقد وثيقة؛ كل ناقدٍ يرتكب كثيرًا من التغييرات، وربما لذلك حذَف «غالي شكري» من جميع قوائم مؤلَّفاته التي تُذيِّل كتُبه كلها، على مَدار نصف قرنٍ من الكتابة؛ اثنَين من كتبه المطبوعة، ألَا وهُما كتاب «كلمات من الجزيرة المهجورة» (طبعة أولى، لبنان، ١٩٦٤م)،

وكتاب «ثورة الفكر في أدبنا الحديث» (طبعة أولى، القاهرة، مكتبة الأنجلو، سبتمبر ١٩٦٥م).

لذا لن يجد القارئ في هذه الطبعة الإلكترونية هذَين الكتابَين؛ إذ أجرى الراحل في حياته تطوُّرًا في فكره، وأشرَف بنفسه على ذلك التطوُّر. لا تنطوي هذه الرغبة على التباهي بكل ما اختاره الناقد للبقاء، ولكنها تعبير عن الوفاء لِمَا وافَق على تسجيله مما يَقبل أن يعرضه للناس. والأعمال الكاملة لا تكون أعمالًا كاملة إلا حين تنتهي حياةُ الناقد، وقد رحل الناقد الكبير في منزله بالقاهرة في مايو من عام ١٩٩٨م، وقد حان الوقت تمامًا لنَشْر تلك الأعمال على النحو الكامل عبر مؤسَّسة هنداوي.

الدكتور «غالي شكري»، كاتبًا ومفكرًا وناقدًا كبيرًا، أسهم بمؤلَّفاته العديدة والمتنوِّعة في إثراء جوانب الحركة الثقافية المصرية والعربية، فهو لم يتخلَّف لحظةً واحدة عن متابَعة دوره الفاعل والمؤثِّر، في صياغة مجتمع العلم والتقدُّم والاستنارة، وآثَر على الدوام أن يكون في موقع القلب من الحياة الثقافية اليومية، عبر اقترابه الحميم ومواكَبته نبْضَ الواقع المُتغيِّر، والالتحام بمشكلات الإنسان المصري وهمومه وقضاياه.

مقدمة

الملف الممنوع من الفتح

في كتابه الصغير «عودة الوعي» طالبَ توفيق الحكيم بفتح ملفات السنوات العشرين الماضية، كان يقصد — أساسًا — ملف التجربة الناصرية.

ودعوة الحكيم مشروعة لأكثر من سبب ... فقد اعتمدت غالبية التحليلات لثورة ٢٣ يوليو على الشعارات المطروحة أو على الوقائع المرئية أو على المعرفة المباشرة ببعض الرجال.

وهذا كله ليس كافيًا لتقييم مسيرة عشرين عامًا، وإنما لا بد من التعرف على الكواليس قبل مشاهدة العرض النهائي على خشبة المسرح، لا بد من معاينة المطبخ قبل رؤية الطعام على المائدة.

وفي كتابه «عودة الوعي» لم يفتح الحكيم ملفًّا واحدًا من الملفات الكثيرة التي يحتفظ بها ... فالرجل لم يكُن بعيدًا عن الأحداث بالقَدْر الذي يُوهم به نفسه والآخرين. كان قريبًا غاية القُرب في بعض الفترات من غرفة العمليات؛ لذلك جاء اكتفاؤه بالدعوة إلى فتح الملفات غريبًا بعض الشيء، وهكذا شارك — بوعي أو دون وعي — في الحملة الضارية على التجربة التي كان — بلا شك — أحد أركانها على صعيد الفكر والفن. حتى حين كان ينقد النظام لم يكُن خارجه.

أما الذين شنوا الحملة بعد رحيل عبد الناصر، فقد كانوا جميعًا وبغير استثناء من معسكر الثورة المضادة.

وكاد الخيط الرفيع أن يختفي بين ما أراده الحكيم وما يريده يوسف السباعي أو صالح جودت أو أنيس منصور أو موسى صبري ... ذلك أن الحكيم في كتابه الصغير

ترك الباب مفتوحًا أمامهم جميعًا، لجأ إلى التعميم واختيار التفاصيل الثانوية والوقائع الهامشية.

ولم يفتح الحكيم أخطَر الملفات على الإطلاق، ولم يُشِر بفتحه: ملف «اليمين المصري» الذي استطاع في أحيان كثيرة أن يحتوي الثورة من الداخل، وأن يفتح الثغرات الحقيقية التي نفذت منها الخطايا والجرائم.

إن الناصريين الذين دافعوا عن ثورة ٢٣ يوليو بمنطق صوابها المُطلَق وخلوِّها من السلبيات يقعون في خطأ فادح ... وكذلك الذين ساووا بين الحكيم وبقية الذين هاجموا عبد الناصر. **لقد كانت السلبيات في التجربة الناصرية ولا تزال من الحقائق التاريخية الدامغة ... وأهم هذه السلبيات هي الجيوب اليمينية في النظام، وقد وُلد بعضها معه وانضم إليها البعض الآخَر في هذه المحطة أو تلك.**

ولعلَّ أبرز هذه الجيوب وأوضحها كانت في حقل الثقافة والإعلام، للطبيعة الخاصة التي يتميز بها هذا الحقل، وهي أنه يقع تحت الأضواء مباشرةً، ولطواعية السلعة الثقافية في التحول والتخفِّي على غير الثبات النسبي والصلابة التي تميز الميادين الاقتصادية والاجتماعية.

ولا شك أنه لدى كل مثقف مصري ملفه الخاص، كمجموعة من الذكريات أو الملاحظات أو الاعترافات التي سجَّلَها في ذهنه أو على الورق في هذه المرحلة أو تلك من مراحل الثقافة المصرية.

ولم يكُن «عودة الوعي» نموذجًا لهذا النوع من التسجيلات الخاصة التي عوَّدَنا عليها الحكيم في «زهرة العمر» و«سجن العمر»، وإنما كان منشورًا مُفتعَلًا لا يليق بكاتب كبير أن يضطر أو ينزلق إلى كتابته. والحق أننا ما زلنا ننتظر من توفيق الحكيم وغيره أن يكتبوا لنا ذكرياتهم الحقيقية التي تفسِّر لنا — على الأقل — أعمالهم الفكرية والفنية طيلة الحقبة الماضية. إن الافتعال في كُتيِّب «عودة الوعي» هو أنه يقف شاهدًا مضادًّا لأعمال صاحبه السابقة على مدى عشرين عامًا.

وربما كنت واحدًا من أبناء الجيل الذي عاصر «المعركة» السرية والمُعلَنة بين مثقفي اليمين وبقية صفوف الثقافة الوطنية التقدمية.

وقد أُتيح لي في مختلف الظروف والمواقع أن أكون قريبًا من الأحداث والشخصيات الصانعة لها. وهي أحداث ومواقف تعرفها أغلبية المثقفين، ولكنَّ أحدًا لا يكتبها ... ربما لأن العُرف السائد هو عدم التعرُّض للأحياء، إذا بادر أحدهم إلى «التذكر» ولأن الجميع ينتظرون موت الجميع، فإن الجميع لا «يتذكرون».

وهذا الكتاب مجرَّد قطرة في بحر الخطايا والجرائم التي ارتكبها اليمين المصري ضد الثقافة والمثقفين ... فالملف الكامل ما زال ممنوعًا من الفتح، لأن الذين يملكونه ليسوا طرفًا واحدًا، ولا يملك الفرد منا أكثر من بضعة أسطر أو قليل من الصفحات.

وعلى مَن يريدون فتح ملف ثورة يوليو أن يفتحوا كل الملفات.

حينذاك سوف تتبدى حقيقة اليمين المصري الذي يطالب الآن بمراجعة الماضي ومناقشته ... وسيكون الطرف الوحيد الذي يحرق الملفات ويطويها للأبد، لأنه كان وما زال المتهم، بل المجرم الوحيد.

فاكتبوا الآن قبل غد، يا مَن تعرفون أكثر مني ... اكتبوا قبل أن يجف المداد في عروق الأيدي.[1]

غالي شكري

بيروت، يناير (كانون الثاني) ١٩٧٥م

[1] يهم الكاتب أن يشير إلى أن الفصل الخاص بالشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري في هذا الكتاب إنما يقصد به إبراز «المناخ» الثقافي في مصر، والذي استدرج شاعرًا كبيرًا إلى منزلقات الخطأ.

الأدباء يعقدون مؤتمر جنيف

الزمن: شتاء ١٩٧٢م.
المكان: الطابق السادس بجريدة «الأهرام» بالقاهرة.
وصوت توفيق الحكيم على الطرف الآخَر من سماعة التليفون، يقول لي بصوت عالٍ، ولكنه متقطِّع: اسمع ... أنا بعتلك آنسة ظريفة، مصرية من أمريكا، تريد أن تتعرف عليك وعلى الجماعة في «الطليعة» ... بتحب الثقافة والسياسة ... دكتوراه من «هارفارد» ... ياللا يا عم ... ابسط!

وظننت أنها إحدى مداعبات الحكيم، ردًّا على المشاغبات التليفونية الدائمة بيننا، ولكني بعد أقل من دقيقة واحدة رأيت أمامي فتاة لها وجه طفلة وجسد متضخِّم ... سريعة الكلام بالإنجليزية ركيكة الفهم للعربية، لا تطيل عبارات التعارف الأولية، وكأنها صاحبة بيت تجلس قائلة بلا مبالاة لدهشتك: أنا سناء حسن ... أُعدُّ دراسة للجامعة حول مواقف الثقافة المصرية المعاصرة من أهم القضايا التي تَعني الإنسان المصري، وتُقلق مصيره حتى ولو لم يكُن واعيًا بها.

ولا تردُّ عليك حين تقاطعها مُستفسِرًا ماذا تشرب، وإنما تستمر كطوفان بلهجة أمريكية حاسمة: قابلت المسئولين السابقين والحاليين: محمود فوزي، عزيز صدقي، زكريا محيي الدين ... إلخ.

ويقاطعنا صوت التليفون، وأقول لها: مكتب هيكل يطلبك ... موعدك معه الآن.

بعربية مكسرة تردِّد كما أن الأمر لا يعنيها: معلش ... بعدين ... المهم، هناك أعداد كثيرة من «الطليعة» أحتاجها ... أريد كتبك، خصوصًا المصادرة، لديَّ أسئلة أطلب منك جوابًا عنها.

ثم ...

دارت على جميع الزملاء و«الأسطوانة» هي هي ... أقبلت حوادث الطلبة والمثقفين فزادت سناء من تحرُّكاتها رغم العرج الخفيف في إحدى ساقَيها الثقيلتين بالطبيعة.

وسألت عنها ...

قيل لي إنها ابنة أحد باشوات مصر السابقين، وكان سفيرنا في واشنطن أيام الملك. وقد وُلدَت في أمريكا وعاشت. وهي تزور مصر للمرة الأولى بتوجيهٍ من أستاذها الصهيوني المعروف «صفران».

ولكن هذا كله لم يضع يدي على «المفتاح» السحري الذي يفتح لها أبواب الكبار في مصر.

ثم سافرتُ أنا إلى بيروت، وتركتها بالقاهرة، ولم يعُد يعنيني من أمرها شيء.

حتى فاجأني أحد الأصدقاء بأن «تحسين بشير» — مساعد المستشار الصحفي لرئاسة الجمهورية حينذاك — قد تزوج، فلما سألته: مَن تزوج هذا العازب الخالد؟ أجابني: «سناء حسن»!

دهشتُ فترة قصيرة لفارق السن بينهما فقط، وسرعان ما نسيتُ الموضوع.

إلى أن كانت المفاجأة الحقيقية، وإذا «بالنيويورك تايمز» تنشر مقالًا لسناء حسن في مكان بارز، مُرفَقًا بصورتها (الوجه فقط طبعًا).

كانت المفاجأة بالنسبة إليَّ أن تُفرِد الصحيفة الأمريكية الكبرى حيِّزًا — أي حيِّز — لقلم بنت مصرية مغمورة لا يعرفها أحد ... مجرد طالبة ذكية بالدراسات العليا بإحدى جامعات الولايات المتحدة استقبلها السياسيون المصريون — ربما — بهذه الروح لا أكثر.

ولكن مقال «النيويورك تايمز» كان مثيرًا ... وكأنه لكاتب عتيد متمرِّس على المصطلحات السياسية والخبرة بالفكر السياسي.

راحت سناء تقول:

- آنَ الأوان ليفهم العرب أن إسرائيل «أمر واقع» لا بد من الاعتراف به ... لا دبلوماسيًّا فحسب، بل ثقافيًّا وتجاريًّا وسياحيًّا. وعلى العرب أن ينهلوا من المَعين الحضاري لإسرائيل لا من الغرب، فهي أقرب.
- آنَ الأوان ليفهم العرب أن الحروب لا تحل المشكلات المُعلَّقة بينهم وبين جارتهم المتفوِّقة ديمقراطيًّا وحضاريًّا، وإنما «السلام» هو القدر الوحيد الذي يجدر بهم — أي العرب — الوعي به بدلًا من سلوك الطريق «الأوديبي» الأعمى.

- لقد أخطأ العرب في حق الحضارة والتقدُّم والتاريخ برفضهم التقسيم عام ١٩٤٧م، وما زالوا يخطئون بالإرهاب الهمجي الذي يشنونه بين الحين والآخَر سواء أكان إرهابًا منظَّمًا بواسطة الجيوش أم إرهابًا فوضويًّا بواسطة المنظمات غير المسئولة.
- والحل الواقعي هو توطين الفلسطينيين في الدول العربية وقيام كيان رسمي لهم ضمن المملكة الأردنية، والاعتراف العربي الشامل بالدولة اليهودية.

بعد هذا المقال مباشرةً اهتمَّت الإذاعات ومحطات التلفزيون الأمريكية بسناء حسن اهتمامًا مثيرًا، وعقدت بينها وبين المثقفين اليهود لقاءات حية بالميكروفون وعلى الشاشة الصغيرة، ودَعَتها الجامعات لإلقاء المحاضرات حول أفكارها، وأصبحت «نجمة» في فترة قياسية!

وذات صباح، حملق القنصل الإسرائيلي في نيويورك في جواز السفر المصري المقدَّم إليه من «سناء حسن» تطلب تأشيرة دخول إلى إسرائيل.

وذات صباح آخَر، حملق ضابط إسرائيلي في مطار اللد في نفس الجواز.

ودخلت سناء حسن إسرائيل!

وكان التعليق المصري الوحيد على كل هذا الضجيج هو إعلان تحسين بشير أنه طلَّقها!

ولكنَّ أحدًا في مصر لم يراجع تحركات سناء حسن الواسعة داخل مصر في شتاء ١٩٧٢م وربيع ١٩٧٣م.

لم ينتبه أحد إلى طبيعة «المهمة» — الثقافية! — التي فتحت لها كل الأبواب المُغلَقة.

وكان أحد هذه الأبواب أرشيف جريدة «الأهرام»، فقد كان في هذا الأرشيف كنز لا يخطر على بال، ضمته حقيبة سناء حسن بهدوء شديد.

هذا الكنز هو ملف الندوة الكاملة التي جرت بين الرئيس معمر القذافي ومجموعة من ألمَع الكتَّاب المصريين ... وكانت «الأهرام» قد نشرت ملخَّصًا حول القسم الأول من الندوة عن الإسلام والشيوعية والرأسمالية. ولكن القسم الثاني لم يُنشر إلى الآن، ويدور حول مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي. وكان سبب عدم النشر أن اثنين من كبار الكتَّاب المصريين هما: توفيق الحكيم، وحسين فوزي قالا بالحرف الواحد إنهما يريان الصلح مع إسرائيل هو المخرج الوحيد من الأزمة!

ورأى هيكل في ذلك الوقت أنه لا ضرورة لنشر هذا الكلام الذي فاجأ القذافي مفاجأة صاعقة!

والسؤال الآن أوجِّهه إلى أستاذنا توفيق الحكيم: لماذا كنتَ نشيطًا في تعريف سناء حسن بالمثقفين المصريين يا صاحب «عودة الوعي»؟ لماذا؟ ألم يئن الأوان لتروي القصة من البداية ... فالأرجح أن سناء حسن سوف تكتب النهاية حين تنشر محاضر الندوة التي أعلنتَ فيها بصراحة تُحسَد عليها (أنت ورفيق نضالك حسين فوزي) أن الصلح مع إسرائيل هو الحل الوحيد ... وأما الفلسطينيون فليحلوا مشكلتهم بأنفسهم!

والفلسطينيون يحلون مشكلتهم بأنفسهم، ولكن بعضهم ممَّن لمعت وجوههم داخل الأرض المحتلة على نيران «المقاومة». ورحنا ننحت لهم التماثيل في أعظم ميادين العرب: قلوبهم، هؤلاء كانوا على موعد مع سناء حسن. إنها وقد عثرت على «كنز» الندوة الأهرامية في مصر كوثيقة ترفعها في وجه «الصقور» داخل إسرائيل قائلة إن «أكبر المثقفين المصريين» يطلبون الصلح معكم من زمان، من قبل الحرب ... ها هي تذهب إلى الطرف الآخَر «الفلسطيني» الذي ينشد الأناشيد فتتغنَّى بها الأمة العربية من الخليج إلى المحيط ... إنها في طريقها إلى مَن يُسمُّون أنفسهم أو يُسمِّيهم البعض «شعراء المقاومة».

إنها تذهب إليهم وفي يدها نسخة من مسرحية سميح القاسم «كيف رد الرابي مندل على تلاميذه»، وهي المسرحية التي تُرجمت إلى معظم لغات العالم الحية على «الستنسل» وكأنها منشور ثوري.

والمسرحية المذكورة عبارة عن مقال سياسي مباشر مُقسَّم إلى ثلاثة أدوار: أحدهما عربي «رضوان»، والثاني إسرائيلي «شلومو»، والثالث دولي «العالم» ... يقتتل العربي والإسرائيلي حين يدَّعي كلاهما ملكية الحديقة «فلسطين» ويتدخل «العالم» مرة بإمداد الطرفين بالسلاح، ومرة أخرى بأغصان الزيتون. ويتلاحم العربي والإسرائيلي مرة جدًّا وأخرى لعبًا. وينتهي بهما الأمر لأن يستمعا إلى نصيحة «العالم» القائلة:

«حوار عقيم لا طائل من تحته، كلاكما هنا، حقيقة واضحة وأمر واقع. والسؤال المهم هو: كيف يمكن العمل على أن تكون إقامتكما هنا طيبة وهادئة ومثمرة؟ هذا هو السؤال.»

والعربي — رضوان — يحب راحيل ودافيد؛ ليثبت أنه ليس معاديًا للسامية، ويجيد العبرية أيضًا. يحب راحيل لزرقة عينَيها، ويحب دافيد، لأنه يؤمن بوحدة الطبقة العاملة سواء أكان العامل يهوديًّا أم عربيًّا.

وسميح القاسم في هذه المسرحية ليس مجرد مؤلف مسرحي، إنه وزملاؤه (شعراء المقاومة في الأرض المحتلة!) يشتغلون بالسياسة، وما يقوله ليس رأيًا فرديًّا، وإنما هو تيار يدعو صراحةً إلى الاعتراف بالكيان الصهيوني من جانب العرب الذين يتحتَّم عليهم إلقاء

السلاح والاحتكام إلى «العقل» ... وهو التيار الذي يتهم المقاومة الفلسطينية علنًا بتخريب فرص السلام؛ ففي «نداء عاجل إلى شعوب المنطقة والعالم» كتب حنا إبراهيم وسميح القاسم وعصام العباسي وسالم جبران ونزيه خير، ونشرته جريدة «الاتحاد» التي تصدر بالعربية، بتاريخ ٧–٦–١٩٧٤م ما نصه:

«نحن — المُوقِّعين — أدناه، من الكتَّاب العرب واليهود، مواطني إسرائيل، نتوجَّه بهذا إلى شعوب المنطقة والعالم للعمل معًا وبصورة فردية، على إيقاف جميع أعمال الإرهاب والعنف نهائيًّا، ضد النساء والأطفال خاصة، وضد السكان المدنيين عامة، ونقرِّر:

(١) أن استعمال طرق الإرهاب، الشخصية أو الجماعية، في المنطقة أو في العالم، لنيل أهداف — أيًّا كان نوعها — يُسقط عن صاحبه حق تمثيل المصالح القومية والسياسية والدولية والإقليمية.

(٢) إنه لا يمكن لأية قضية من قضايا المنطقة أن تُحَل عن طريق العنف أو القتال.

(٣) إن المنظمات المسلَّحة والحكومات مناشدة بهذا أن تتخلى عن كل استعمال للعنف ضد المدنيين وأن تتهيأ لمحادثات سياسية.

وبعد أن تحقِّق المنظمات والحكومات هذا الشرط، فإن الأطراف مدعوَّة إلى الاعتراف أحدها بالآخَر ولابتدار محادثات السلام.

(٤) إن الحكومات أو الجيوش أو المنظمات المسلَّحة التي تُقيم عن قصدٍ أهدافًا عسكرية وسط تجمعات السكان المدنيين، مسئولة بصورة مباشرة عن كل إصابة تلحق بمدنييها، بمستوًى ليس دون مستوى مسئولية أية قوة مُعادية تستهدفها بإصابتها حيثما كانت.

(٥) إن جميع حكومات المنطقة مدعوَّة إلى الاعتراف بحق جميع شعوب المنطقة ودولها في تقرير مصيرها، وبحقه في العيش بسلام وأمن وفي مقدِّمة ذلك حق الشعب اليهودي في دولة إسرائيل، والشعب العربي الفلسطيني في دولته.

(٦) إن هذه المنطقة تُعاني هستيريا سنين طويلة؛ حيث أصبحت الأعمال التحت-بشرية فيها جزءًا لا يتجزأ منها. وهذه الهستيريا ناتجة — مما نتجت عنه — عن الصورة التي تُدار بها الشئون السياسية في هذه المنطقة على جانبَي الحدود.

(٧) حل هذه القضية بصورة جذرية لن يبدأ إلا حين يُبتدَر حوار مباشر وجوهري بين الشعبين، لوضع حدٍّ للنزاع الطويل واللاضروري هذا.

(٨) هذا الحوار الجذري يمكن أن يُبتدَر إليه بالفعل، بمعونة جماعة واحدة معيَّنة، على جانبَي الحدود، هي: الكتَّاب والمثقفون العرب واليهود.

(٩) إن على حكومات المنطقة أن تساعد الكتَّاب والمفكرين، أفرادًا وجماعات، بالمبادرة لعَقْد لقاءات إسرائيلية عربية في دول محايدة لإعداد الخلفية السيكولوجية والمناخية — بعد فصل القوات — لنجاح مؤتمر جنيف.»

وكان البيان قد تصدَّرَته هذه السطور:

«يُرجى من الكتَّاب والمفكرين في إسرائيل وفي الدول العربية وفي العالم أجمَع الذين يودون الإعراب عن تجاوبهم مع هذا النداء أو الانضمام إليه أو المساعدة على نشره، وكذلك ممَّن يود الإسهام في تمويل نشر هذا الإعلان في صحف أخرى، في إسرائيل وخارجها، أن يتوجهوا إلى العنوان التالي: ... ... تل أبيب.»[١]

وليس البيان — على هذا النحو — منشورًا سرِّيًّا ولا مقالًا عابرًا، وإنما هو — على حد تعبير محمود درويش — «إعلان عن بداية نشاط عالمي لاستقطاب أكبر قدر من تأييد الأهداف التي تضمنها النداء العاجل».

ولم يكُن غريبًا أن تطلب سناء حسن أن تكون أول فقرة في برنامج زيارتها في إسرائيل هو مقابلة سميح القاسم و«رفاقه» ... بل إن أول اجتماع عمل كان لقاء بين الموقِّعين على البيان من الفلسطينيين والإسرائيليين. وليس هذا كله، مهمًّا!

وإنما البيان قد وجد طريقه فورًا إلى الاستجابة ... نشرَتْه وطبعَتْه صحفٌ سرِّية ومطابع تحت الأرض، وأذاعته مختلف الراديوهات التي يعرف موجاتها القليلون.

ولكن أول الغيث كان من القاهرة، وكان غيثًا علنيًّا إلى أقصى الحدود.

ولم يجئ الغيث من توفيق الحكيم الذي كان مشغولًا بالسؤال عن كيفية تحويل ٤٠ ألف ليرة لبنانية ثمنًا لكتابه «عودة الوعي» الذي يسبُّ فيه عهد جمال عبد الناصر.

---

[١] تخلَّى سميح القاسم فيما بعد عن توقيعه على هذا البيان بعد أن استنكرته جريدة «الاتحاد» الشيوعية، كما أدانه الشاعر توفيق زياد.

ولم يجئ أيضًا من حسين فوزي الذي كان مشغولًا باختيار عنوان «ملاك الإرهاب» كتابه الجديد عن عبد الناصر أيضًا.

لم يجئ الغيث من أحدهما رغم أنهما «على الخط» مع البيان الفلسطيني-الإسرائيلي المضاد للمقاومة والداعي إلى الصلح.

وإنما هطل الغيث من كاتب طلب الراحة مؤخَّرًا من المناصب الإدارية ليتفرَّغ للكتابة، ويبدو أنه طلب الراحة من عناء «الموقف السياسي» فآثَرَ «أمس واليوم وغدًا».

جاء أول الغيث من إحسان عبد القدوس. ولست أعرف ما إذا كان إحسان أحد الذين قابلتهم سناء حسن بين أواخر ٧٢ وأوائل ٧٣، وما إذا كانت هناك علاقة شخصية تربطه ببعض «شعراء المقاومة في الأرض المحتلة».

ولكن الشيء المؤكَّد أن هناك تطابُقًا مثيرًا بين أولى مقالات إحسان التي نشرها في «أهرام» الجمعة (٢–٨–١٩٧٤م) ومعظم الأفكار التي وردت في بيان «المقاومين من أجل الاعتراف بإسرائيل» سواء أكانوا الشعراء الفلسطينيين أم تلميذة هارفارد. كذلك فإن إحسان لم يحضر «ندوة الأهرام» التي شهدت حماس الحكيم وفوزي للصلح مع إسرائيل، ولكن المؤكد أيضًا أن ما بينه وبينهما أكثر من توارُد خواطر.

... فإحسان، بطريقة أشبَه ما تكون بأسلوب سميح القاسم في مسرحيته المذكورة أي بطريقة المقال السياسي المُصاغ أدبيًّا، كتب تحت عنوان «أين صديقتي اليهودية؟» قصة طريفة مهَّد لها بذكاء مُرهَف عن تجربته مع الخلق الفني، وكيف أن هناك شخصيات واقعية توحي إليه بالفكرة أو الرأي الذي يريد أن يقوله في القصة أو الرواية. ومن بين هذه الشخصيات «جلاديس» الفتاة اليهودية التي كانت جارته في العباسية منذ الطفولة إلى الصبا.

وكما لو أن إحسان يريد أن يفتح «ملفاته» أمام إحدى الجهات لطلب التبرئة من تهمة لم ينسبها إليه أحد، يذكرنا بقصته القديمة «بعيدًا عن الأرض» التي استلهم فيها شخصية جلاديس وألبسها ثيابًا أمريكية يهودية، وأصبحت — في القصة — فتاة يهودية جميلة تجذب إلى غرامها شابًّا عربيًّا من مصر. ويدور بين القلبين — أو العقلين — حوار عنيف مؤداه أن الحرب بين اليهود والعرب تحول دون الحب. وقد جرب كلاهما أن ينسى الآخَر، رغم أنها جُندت في إسرائيل، وجُند هو في مصر. قبل ذلك قالت له: سأقتلك.

«قال: سأعفيكِ من قتلي ... سأقتلكِ أولًا.

ودفنت وجهها في عنقه وهمست: يا حبيبي ...

وافترقنا ...

ووقف بسلاحه على خط النار ... إن الرصاصة التي يطلقها قد تصيب ماريا، والرصاصة التي تقتله قد تكون رصاصة ماريا ... ولكنه لا يريد أن يقتل ماريا، إنه يريد أن يقتل ساسون ... ساسون الذي استولى على ماريا، في نيويورك وأرسلها لتجند في الهاجاناه ... يريد أن يقتل الصهيونية لا اليهود ... وقتل ... وأسهم في معركة أسدود، ونال وسامًا ... وانتهت الحرب.

وبعد خمس سنوات، سافر في عمله مرة أخرى إلى نيويورك ... والتقى صدفة بماريا، وسألها في دهشة: متى جئت إلى نيويورك؟

وقالت: إني أقيم هنا.

قال: منذ متى؟

قالت: منذ خمس سنوات.

قال: وإسرائيل؟

قالت في حِدَّة: إني أمريكية.

– وإسرائيل؟

قالت وهي تنظر إلى بوز حذائها: تركتها.

قال وبين شفتَيه ابتسامة شامتة: لماذا؟

قالت ساخرة: لأني لا أستطيع أن أقتلك ...»

نشر إحسان هذه القصة عام ١٩٥١م أي غداة النكبة مباشرة. وهي رغم التزاويق العاطفية قصة سياسية ترى الحرب — أي حرب — اغتيالًا للحب، أي حب!

كانت «ماريا» وجهًا أمريكيًّا لجلاديس اليهودية التي عرفها إحسان في صباه، والتي استوحى منها — كما يقول — العديد من قصصه. ثم سافرت جلاديس عام ١٩٥٦م إلى إسرائيل واكتسبت جنسيتها. ونساها إحسان تمامًا.

إلى أن كان هذا الصيف حين أراد أن يمضي إجازته بعيدًا عن السياسة والأصدقاء والمعارف، فاختار إحدى الجزر في المحيط الأطلسي في موازاة الساحل الأفريقي تُدعى جزيرة «ماديرا».

وهناك رأى جلاديس (صدفة أيضًا!) امرأة في السادسة والخمسين، تبيع الأحذية في أحد المتاجر، حصلت على الجنسية البرتغالية والفرنسية، بالإضافة إلى الإسرائيلية. ويدور بينهما هذا الحوار:

«– لا يمكن ... إني أعرف أول سؤال ستواجهني به ... لماذا تركت مصر؟ إن مجرد هذا السؤال يُدمي ذكرياتي.

قلت: لا ... لن أسألك لماذا تركت مصر، ولكني أسألك ... لماذا لا تعودين إلى مصر؟

قالت: إنه سؤال مجاملة بالأسلوب المصري كأن تقول لأحد المارة: اتفضل ... اتفضل شاي ... ولو تفضَّلَ لأحسستَ بنكبة تقع على رأسك.

قلت وشهوة التطلُّع واكتشاف الواقع تجتاحني: أنا لا أجامل ... إني أتمنى فعلًا أن تعودي إلينا.

قالت وابتسامتها الضعيفة تنضح بالحسرة: إذَن فقد تغيرت ... ليست هذه طبيعتك ... ولا طبيعة أي مصري ... هل تقبل عودة الزوجة الخائنة إلى زوجها؟

قلت: قد لا تكون خائنة ... قد تكون قد اعتُدِي عليها أو غُرِّر بها. المهم ألا تكون الخيانة من طبيعتها.

قالت: وهل يقبلونني في مصر؟

قلت: لماذا لا يقبلونك؟

قالت: لأني يهودية.

قلت: إن كيسنجر يهودي، ورغم ذلك فهو صديق لنا كلنا.

قالت: إن كيسنجر يتحرَّك بصفته الرسمية لا بصفته يهوديًّا ... إنه أشبَه ببائع في دكان، يرحِّب بالزبون ويخدمه، ولكن ليس على حساب صاحب المحل ... لو اشتريت منِّي حذاءً الآن فسأنتقي لك أحسن ما عندي، وأضمن لك ألا يكون واسعًا ولا ضيِّقًا، ولكني أكثر حرصًا على ألا يخسر صاحب المحل سكودس واحدًا (عملة ماديرا) ... هذا ما يفعله كيسنجر بينكم وبين إسرائيل ... وأنا ... أنا شيء آخر ... أنا واحدة من الناس ... وكنت واحدة منكم في مصر ... ثم كنت واحدة من الناس في إسرائيل ... ومَن أدراك ... ربما كنت أحارب معهم!

قلت لمجرد أن أشدها إلى مزيد من الكلام: ولكن كيسنجر حارب مع إسرائيل أيضًا، كان هو الذي يضغط على وزير الدفاع الأمريكي ليحارب معهم، وكان نيكسون يؤيده ... ثم انتهت الحرب ... وأصبح كيسنجر ونيكسون صديقَين لنا.

قالت وابتسامتها الضعيفة تنقلب إلى ابتسامة ساخرة: هل تعتقد أن الحرب انتهت؟

وتوقفت برهة عن الكلام ... لم يعُد هذا الأسلوب ينفع في حديثي مع جلاديس، ثم قلت: لا ... الحرب لم تنتهِ!

قالت: هل تستطيع أن تحدِّد متى تنتهي؟

– لا ... لا أحد يستطيع!

قالت: أي إن الحرب قد تبدأ من جديد!

قلت: ربما.

قالت: وإذا بدأت فأين يقف كيسنجر منها؟

قلت: يحاول وَقْف إطلاق النار ليعود بنا إلى الحرب السياسية.

قالت وابتسامتها الساخرة تتسع: كُن أكثر صراحةً معي ... إن كيسنجر سيحارب معنا ... أقصد مع اليهود ... آسفة، أقصد مع إسرائيل ... قد يستقيل ليترك غيره يتحمل المسئولية، ولكنه لن يترك إسرائيل وحدها أبدًا.

وسكت!

وعادت تقول: إذا كان هذا هو كيسنجر الصديق ... فماذا تطلب مني أنا؟

قلت كأني أهرب منها: لا شيء!»

هذا هو نص الحوار الواقعي كما كتبه إحسان عبد القدوس بنفسه. ولا فرق يكاد يُذكر بين القصة «الفنية» التي كتبها منذ ربع قرن، والقصة «الواقعية» التي يرويها الآن، سوى أن الزمن قد ترك بصماته على المرأة وعليه، فلا غرام ولا هم يحزنون.

أي إن الرجل — إحقاقًا للحق — لم يتغير ... فهذا هو فكره حول الصراع العربي–الإسرائيلي منذ البداية. ولكن المشكلة الحقيقية التي تواجهنا مع إحسان هو أن كل شيء قد تغيَّر حتى وإن لم يتغير هو. والمشكلة الثانية هي «التوقيت» الذي اختاره بعناية فائقة لنشر هذه الحكاية. والمشكلة الثالثة هي أن بعض ما جاء على لسان المرأة يكاد يكون بالحرف هو رأي عبد القدوس في كيسنجر ونيكسون وأمريكا.

ماذا تغيَّر؟

تغير الفلسطينيون أولًا، فلم يعودوا «لاجئين» بل شعبًا ومقاومة.

تغيَّر العرب، وليس أدل من حرب أكتوبر على تغيرهم. تغيَّر العالم فأصبح لقضيتنا أصدقاء واضحين وأعداء واضحين. المعسكر الاشتراكي وفي مقدمته الاتحاد السوفياتي هو الصديق الحقيقي، حليفنا الاستراتيجي. والمعسكر الاستعماري وفي مقدمته الولايات المتحدة، هو العدو الحقيقي والحليف الاستراتيجي لإسرائيل.

ولكن إحسان يرى العكس. يرى أننا ما زلنا في «دوامة الحرب» وكأنها حلقة مفرغة بلا معنى. ولا يرى الفلسطينيين ومقاومتهم الثورية على الإطلاق. ولكنه يرى كيسنجر الصديق الذي يتصرف على نحو رسمي لا بصفته يهوديًّا. ولا يرى قوى التحرُّر والاشتراكية والاتحاد السوفييتي على الإطلاق. ولكنه يرى جلاديس وكأن لقاءهما هو المصير والقدر.

رؤية شيء أو عدم رؤيته، موقف.

وزمن الرؤية موقف.

ما موقف إحسان عبد القدوس؟

إنه ببساطة شديدة يعتقد مؤتمر جنيف الأدبي، ويجلس على مائدة واحدة مع سناء حسن وسميح القاسم والكتَّاب الإسرائيليين وكيسنجر وتوفيق الحكيم وحسين فوزي.

ويُدير الحوار الذي لم يبدأ رسميًّا بعدُ في قصر الأمم.

يُديره على صفحات الأهرام القاهرية، والنهار اللبنانية، والسياسة الكويتية، وما خفي من الإذاعات والصحف الأجنبية.

يُديره بمنطق الاعتراف والصلح، بمنطق إدانة المقاومة بتجاهلها، بمنطق الهزيمة لا بمنطق السادس من أكتوبر، بمنطق الصديق كيسنجر وإدانة السوفيات، بمنطق المثقف المصري المعزول في برج من العاج لا علاقة له بالجماهير العربية.

وهو منطق أقلية ضئيلة لا تمثِّل إلا نفسها، ولكن الضجيج الذي تثيره بأقوى أجهزة الإعلام من شأنه أن يضخِّم الصوت.

الصوت «الآخَر» لا الرأي الآخَر ليس بالتأكيد صوتنا.

ليس صوت مصر، ولا فلسطين، ولا الأمة العربية، وإنما هو «النشاز» الذي يستوجب البحث عن أصله ومصدره ... يستوجب المحاكمة!

و ...

كنت أزور صديقًا في أحد فنادق بيروت الكبيرة حين صادفني مراسل أجنبي أعرفه، ابتدرني بقوله: سوف أعطيك سبقًا صحفيًّا لا تحلم به، هو فكرة لرسم كاريكاتوري: خط تليفوني يربط بين القاهرة وإحدى العواصم الأخرى، وفي أحد طرفَي الخط أمسك بالسماعة إحسان عبد القدوس، وكانت على الطرف الآخَر سناء حسن، تقول ما معناه باللهجة المصرية: جريدة الأهرام ... آلو ... أيوه يا إحسان ... أخبر أصدقائي، يا ناس يا عواجيز هنئوني ... لقد أصبحتُ أجيد العبرية في مستوى سميح القاسم والله العظيم.

وهمس في أذني: لقد أدلى طالب إسرائيلي في هارفارد بتصريح قال فيه: إن في حوزة سناء «وثائق» تؤكد أنها ليست صاحبة الصوت الوحيد الذي يُنادي بالصلح مع إسرائيل، وإنما هناك مجموعة من أكبر العقول في مصر تنادي بنفس الرأي.

وابتسمتُ في داخلي وتذكرت كل شيء.

تذكرتُ أيضًا ما قد لا تعرفه سناء حسن … تذكرتُ شابًّا مصريًّا كان طالبًا في كلية الطب يُدعى «وجيه غالي»، وكان ينتمي إلى إحدى الحركات اليسارية، ولكنه استطاع الهرب إلى لندن. وهناك تلقَّفَته إحدى «الجهات» وكانت تعرف ميوله الصحفية وموهبته الأدبية. واستطاعت أن تُغريه بالسفر إلى إسرائيل، وعاد ليكتب مجموعة من التحقيقات المثيرة لجريدة «الصنداي تايمز» إلى جانب إسرائيل.

وزيادة في التكريم والغواية نُشرت له رواية في سلسلة بنجوين عن تعذيب في سجون مصر. وما زالت الرواية في المكتبات وعلى ظهر غلافها تعريف بوجيه غالي يقول إنه أول مصري شجاع يزور إسرائيل ويكتب عنها بحرية كاملة.

ولكن هذا «الرائد الشجاع» وُجد منذ عامين منتحرًا في إحدى غرف البنسيون الذي يقيم به في لندن! وترك رسالة بخط يده اعترف فيها بخطيئة العمر، أشارت إليها الصحف الإنجليزية بصورة عابرة؛ لأن البوليس احتفظ بها … فلم تكُن موجَّهة إلى أحد بالذات.

وهمستُ في أذن المراسل الأجنبي: سوف أبادلك السبق الصحفي الكريم. اكتب: فتاة مصرية بالجامعة تُدعى «سناء هاشم» أرسلت إلى إحسان عبد القدوس صباح السبت الماضي مكتوبًا يقول «إنني طالبة أقرأ لك بانتظام، وأعد رسالة عنوانها (الإنسان العربي في الرواية اليهودية) … ويبدو أننا أكثر تحضُّرًا — أو كذبًا — من اليهود، فنحن نصورهم كما قرأت لك أمس بطريقة فنية راقية … بينما قراءتي لأدبهم جعلتني أقشعرُّ وأنا أجمع الصفات الحيوانية الشيطانية التي يلصقونها بالإنسان العربي … الأدب معركة يا أستاذ وهم في مواقع الهجوم دائمًا، ونحن بأمثالك في مواقع الدفاع دائمًا. لماذا؟»

ولن يجيب كاتبنا الكبير على سناء هاشم.

لأنه كان قد اختار أن يكون في صف سناء حسن، غير أنه ينسى أن بنت الحاج هاشم هي صوت مصر الحقيقي … الصوت الباقي.

أما صوت سناء بنت حسن باشا فهي الصوت المزيف، والذي سرعان ما يزول.

أين كان توفيق الحكيم والمثقفون في قاع الجحيم؟

دقَّ جرس التليفون في منزل توفيق الحكيم، وكان على الطرف الآخَر صوت مهذَّب أكثر من اللازم يتكلم بلهجة شبه عسكرية: رئاسة الجمهورية يا فندم ... مبروك يا سعادة البك ... سيادة الرئيس أنعمَ على سيادتك بأرفع وسام في الدولة ... قلادة الجمهورية ... معك على الخط سيادة كبير الأمناء.

وتكلَّمَ توفيق الحكيم مع صلاح الشاهد. لم يفهم في بداية الأمر شيئًا. ولكنه ظل يردِّد: نعم. نعم. حاضر. شكرًا.

شخص آخَر هو الذي فهم. دقَّ في بيته هو الآخَر جرس التليفون، ولكن من رئاسة تحرير جريدة «الجمهورية»، وسمع صوتًا أجش يقول: يا أستاذ رشدي لا تكمل مقالك الجديد عن توفيق الحكيم.

وحين أراد أحمد رشدي صالح أن يستفسر عمَّا حدث، كان الخط قد انقطع.

حدث ذلك عام ١٩٥٧م. كنت محررًا «مشاغبًا» في مجلة ذائعة الصيت حينذاك اسمها «العالم العربي»، وكانت مقالات أحمد رشدي صالح على صفحات «الجمهورية» قد استهوتني، فكتبت مقالًا بعنوان «بين خمينيث وحمار الحكيم». وصدرت المجلة بعد أن توقفت حملة الجمهورية على توفيق الحكيم، وبعد أن أعلنت الصحف عن فوزه بأرفع وسام في الدولة (لا يُعطى إلا لرؤساء الدول). ولأنه لم يكُن لديَّ تليفون في المنزل، فقد فوجئت بأسعد حسني — رئيس التحرير — يطرق بابي في الصباح الباكر وهو يصرخ: خربت بيتي، خربت بيتي! كان أحمد رشدي صالح قد بدأ سلسلة مقالات نقدية، يقارن فيها بين بعض مسرحيات توفيق الحكيم وبعض الأعمال الأجنبية. وكانت أكثر المقارنات

مدعاة للدهشة والإثارة، تلك المقارنة التي أقامها بين «حمار الحكيم» وحمار خمينيث الكاتب الإسباني ... فقد طبع إلى جانب مقاله بالزنكوغراف صفحات كاملة من الأديب المصري تقابلها صفحات مماثلة من أديب إسبانيا تصل إلى حد المطابقة!

وهاجت مصر وماجت. وارتفع توزيع الجمهورية ارتفاعًا مذهلًا، والجمهورية هي جريدة الثورة وصوت حركة ٢٣ يوليو. وبعد أزمة مارس (آذار) ١٩٥٤م، وتأميم القناة في ١٩٥٦م أصبحت اللسان الرسمي للرئيس عبد الناصر، قبل أن ينتقل هيكل من «آخر ساعة» إلى «الأهرام».

وثار «الرئيس» ثورة عاتية. ونقل عنه المقربون أنه قال: إنني لا أفهم المقارنات والتحليلات الأدبية. ولكني أشعر أن هناك مَن يريد النَّيْل من توفيق الحكيم. وهو رجل عظيم، أعترف أنني تأثرت بروايته «عودة الروح» تأثُّرًا عميقًا، لقد حاولت تقليده في كتابة قصة لم أكملها، ولكن المؤكد أنني استوحيتُ من روايته «ثورة» أحاول استكمالها.

وتسرَّبَت تعليقات عبد الناصر، فذاع تعبيره أنه تأثَّر بعودة الروح لتوفيق الحكيم، ثم جاء الوسام الرفيع كالخاتم الرسمي على الشهادة.

وارتاح الحكيم! لا لأن رأي عبد الناصر فيه كان إيجابيًّا، وإنما لأن «الحملة» عليه قد توقفت.

وارتاح شخصان آخَران ضحكًا في أكمامهما طويلًا، هما التوءمان: مصطفى وعلي أمين! فقد كان الحكيم آنذاك هو «نجم» «أخبار اليوم» اللامع. كان أكبر كتاب «الدار»، وعلى يمينه العقاد مرفوضًا لسلبيته وجموده المفرط، وعلى يساره سلامة موسى مرفوضًا لتقدميته وتطوُّره المكشوف. كان العقاد تخلَّى نهائيًّا عن ثوريته القديمة، وأصبح يرى العلم ضد الدين. وكان سلامة موسى قد وصل نهاية الشوط فأصبح يرى العلم وحده هو الدين. بينما راح توفيق الحكيم على صفحات «أخبار اليوم» يكتب مسرحيته الشهيرة «رحلة إلى الغد» ليقول فحسب: ما أفظع العلم إذا سيطر على الدنيا غدًا! كم هو مظلمٌ المستقبل الذي يخضع لتوجيه العلم والعلماء!

ولم يكُن هذا الحوار — الفلسفي! — بحد ذاته مهمًّا إلا في حدود ضيِّقة من حلقات المثقفين. ولكن الأهم أن العقاد كان قد انطوى في صومعته بعيدًا عن الفكر السياسي احتجاجًا على كافة منجزات حركة ٢٣ يوليو. وكان سلامة موسى صوتًا مدويًّا بسلامة اتجاه عبد الناصر رغم السلبيات الثانوية، لأنه الاتجاه التاريخي لمصر نحو الاشتراكية والديمقراطية. أما توفيق الحكيم فكتب مسرحية «إيزيس» باعثًا المجد الفرعوني القديم!

وقد أتاح مصطفى وعلي أمين لتوفيق الحكيم الفرص كافة لتتويجه «أبًا» فكريًّا لمصر الحديثة. ثم اختطفه هيكل إلى الأهرام ومات سلامة موسى. وبعده رحل العقاد. وصدرت تنظيمات الصحافة التي تشبه التأميم، فأحسَّ الأخَوان أمين بالزلزال، وعوت الكلاب من قبل أن تتفجر.

هل معنى ذلك أن توفيق الحكيم كان ضد ثور ٢٣ يوليو؟

كلا.

هل معنى ذلك أنه «نافقها» خوفًا وجبنًا؟

كلا أيضًا! بل لعله كان الأديب الوحيد الذي يُعَد بحق كاتب النظام، من قبل أن يوجد النظام.

لم يكُن الحكيم أديبًا ثوريًّا، ولكنه كان ساخطًا على الديمقراطية الشكلية أيام الملك، هاجمها بضراوة أصابت برذاذها حزب الوفد — أكبر التنظيمات السياسية الليبرالية — وفي «عصا الحكيم» و«حمار الحكيم» و«شجرة الحكم» حملة شعواء على المجالس النيابية والوزارية والدستور، حتى إنك تتصور الرجل أحيانًا وكأنه ضد الديمقراطية!

ولكنه أيضًا، وأثناء الحرب الثانية بالذات، شنَّ هجومًا صاعقًا ضد هتلر والنازية وموسوليني والفاشية. وأجرى حوارًا بين شهريار الجديد وشهرزاد، تنبَّأ فيه بهزيمة النُّظُم العسكرية الدكتاتورية، وأكد فيه مناصرته للحضارة الديمقراطية.

ليس ذلك فحسب!

بل هاجم الشيوعية واعتبرها — من حيث الأسلوب — الوجه الآخر للفاشية، ولم يفرِّق كثيرًا بين هتلر وستالين، رغم اختلاف غايتيهما. ولكنه مجَّد روزفلت وتشرشل وديغول.

أين كان يقف إذَن؟ وهو الرجل الذي تشهد له أجهزة الأمن المصرية على اختلاف عصورها، أنه لم يلتحق بحزب من الأحزاب. رجل وقف بوضوح ضد الغول الفاشيستي وما دعاه بالخطر الأحمر على الصعيد الدولي. كما وقف بوضوح ضد حكومات الأقليات وحزب الأغلبية في الوقت نفسه على الصعيد المحلي!

أين كان؟

كان يرتدي ثياب «محسن» في «عودة الروح»، وشعاره «الكل في واحد». وكان الداعية الحقيقي لفكرة «المستبد العادل» التي ظهرت طيلة الثلاثينيات من هذا القرن في الحياة السياسية المصرية.

لقد رفض الاشتراكية شكلًا ومضمونًا، كما رفض الديمقراطية الغربية في التطبيق المصري! ولم يكُن «منظِّمًا» في حزب من الأحزاب.

هكذا رآه التوءمان مصطفى وعلي أمين — بحقٍّ — نبيًّا للنظام الجديد. إنه ليس انتهازيًّا بأي حال من الأحوال، فهذا الشكل الجديد من أشكال الحكم هو الحلم الذي كان يراوده منذ سنوات طويلة، بصورة ضبابية غائمة!

كان تأييده لحركة ٢٣ يوليو صادقًا لأنه أبوها الشرعي. وحين أراد «الأخوان أمين» أن يستغلَّا هذه الأبوة حتى النهاية، اختطفه هيكل إلى الأهرام. كانت ثورة ٢٣ يوليو تتحرك باعتدال نحو الوسط. وقد جاء وسام عبد الناصر للحكيم عام ١٩٥٧م حمايةً له من اليسار، كما جاءت الأهرام حمايةً له من اليمين.

ولكن جرس التليفون دقَّ مرة أخرى في بواكير عام ١٩٥٩م في بيت توفيق الحكيم. دقَّ — في الواقع — أكثر من مرة.

قال له الخط الثاني: الرئاسة تسأل توفيق بك ما إذا كان يمكن أن يشرب الشاي مع السيد الرئيس بعد الظهر. وارتجَّ الأمر على الحكيم وطلب مهلة دقائق للرد، لأنه كان في «الحمام» واتصل مباشرة برئيس تحرير الأهرام الذي دبَّر الأمر كله، فأجابه هيكل: أبدًا ... الرئيس عاوز يشوفك. طبعًا سمعت باللي حصل. عاوز يسمع رأيك.

قبل ذلك كان نجيب محفوظ على الخط الأول، قال له: يا توفيق بك، أناشدك التدخل لثقة الرئيس بك، ومودته لك وتأثُّره المُعلَن بروايتك، أناشدك التدخل لإنقاذ سمعة النظام من هوس أجهزة الأمن التي اعتقلت خلال الأيام الماضية بعضًا من صفوة المثقفين في البلد. يا توفيق بك، يوسف السباعي أنقذ عبد الرحمن الشرقاوي، فقد كان اسمه مكتوبًا في القوائم. كامل الشناوي ذهب بنفسه إلى عبد الناصر لينقذ أحمد رشدي صالح، حتى سعد الدين وهبة أنقذ عبد القادر القط. وقد غضب الرئيس حين تبيَّن له بالفعل أن الشرقاوي وصالح والقط لا علاقة لهم بالتنظيمات الحزبية. كلمتك الآن يا توفيق بك يمكن أن تنقذ العديدين، أرجوك!

ورغم معرفة نجيب محفوظ بالتسجيلات المباحثية للتليفونات فقد كاد يجهش بالبكاء وهو يقول: النظام نفسه في خطر يا توفيق بك. أشك في أن الرئيس يعلم كل شيء. وحتى لو كان يعلم فقطعًا لا يدري بالتفاصيل: تفاصيل الأسماء وتفاصيل ما يحدث.

وجاءه صوت توفيق الحكيم وقورًا ثابتًا: يا نجيب دول بيقبضوا عليهم لأسباب مالهاش علاقة بالفكر والأدب ... دول لهم صفتين، صفة المثقف وصفة السياسي، إحنا ندافع بس عن المثقفين، لكن الناس اللي عايزة السلطة ما لنا وما لهم؟

وصمت نجيب محفوظ على الطرف الآخَر. ولم يدق تليفون الرئاسة من جديد في بيت الحكيم، فقد استطاع هيكل أن يبرِّر موقفه للريِّس بأن الرجل عجوز ولا يدرك من الأمور التي تجري شيئًا، ومن الأفضل لسمعته أن يكون بعيدًا حتى لا يتهمه أحد أو يشك فيه.

واستغرب عبد الناصر طويلًا ... فقد كانت بين يديه قائمة أعدَّتها المخابرات العامة بأسماء مجموعة من أساتذة الجامعات وكبار الأدباء، يريد أن يستمع إلى رأيه فيهم!

وقد أراد الحكيم أن يغسل يديه كبيلاطس البنطي من دماء الأبرياء، فكتب عام ١٩٥٩م مسرحيته الشهيرة «السلطان الحائر». ذلك السلطان غير الشرعي، والذي لا بد وأن يكتسب شرعيته بصوت الشعب والقانون، لا بالسلطة والسيف. كان واضحًا رغم الديكور الملوكي الذي أضفاه على المسرحية أنه يقصد النظام المصري الراهن، وأنه يثق إلى أقصى الحدود بجمال عبد الناصر، ولكنه يحذره من الوزير والقاضي والمؤذن والسيف، ويضطره لقبول الغانية الفاضلة وحكم القانون.

وطلبه نجيب محفوظ بالتليفون مهنئًا، يقول: الحمد لله على أن الرقابة وافقت ... باقي «أولاد حارتنا». كانت هذه هي الرواية الأولى لنجيب محفوظ التي يمكن أن تكون محكًّا لعلاقته بالحكم ... فالثلاثية التي بادرت بنشرها مجلة «الرسالة الجديدة» بين عامَي ١٩٥٤ و١٩٥٦م، ثم صدرت كاملة في ثلاثة أجزاء عام ١٩٥٧م اقتصرت على تناول المرحلة الواقعة بين عامَي ١٩١٧ و١٩٤٤م أي إنها توقفت تاريخيًّا قبل حركة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م بثماني سنوات. أما «أولاد حارتنا» فقد عالجت بالرمز الديني المهذَّب قضية الاشتراكية والعلم. رفضتها الرقابة أولًا، وثار عليها الأزهر ثانيًا، وتمكَّن هيكل من حل وسط عجيب، هو نشرها مسلسلة في الأهرام دون نشرها في كتاب.

وظلَّ أصدقاء نجيب محفوظ من الكتَّاب والنقاد يختفون الواحد بعد الآخَر. كانت ندوته الأسبوعية في كارينو أوبرا وسط القاهرة (كازينو صفية حلمي) كل يوم جمعة. وكان من اليسير ملاحظة التناقص التدريجي في عدد روَّاد الندوة منذ أول العام الجديد ١٩٥٩م إلى ٢٨ مارس (آذار) من نفس العام إلى يوليو (تموز) إلى العام التالي ١٩٦٠م. اختفى من الندوة — حضورًا وذكرًا وتباعًا — محمود العالم، ولويس عوض، ولطفي الخولي، وأمير إسكندر، وصلاح حافظ، وفيليب جلاب، وشوقي عبد الحكيم، وطاهر عبد الحكيم،

وفتحي خليل، وسعد التايه، وألفريد فرج، ونبيل زكي، ومئات ... مئات غيرهم، يعرفهم الأقلون ويجهلهم الأكثرون.

وتكهربَ جوُّ مصر! إن ثمَّة شيئًا رهيبًا يحدث، ولكن في صمت. تجاوز العدد المئات وبدأ العد بالألوف. صفوة العقول، وخيرة المناضلين وأصلَب الوطنيين.

ولا أحد يتكلم! وإنما حملقت الدنيا كلها وطالت الألسن على آخرها، حين راح أحد اللصوص الظرفاء يطارد الأغنياء في عقر دورهم، يأخذ منهم ولا يقتل. والشرطة تحاول عبثًا الإمساك به. وأصبح بطلًا في المخيلة الشعبية يتتبع الناسُ أخباره لحظة فلحظة وقلوبهم بين أيديهم يضرعون إلى المجهول ألا يقع في أيدي البوليس. وانضمت إحدى الصحف الكبرى إلى قافلة الشرطة تتعقب «المجرم الخطير» وترصد لَمن يعثر عليه — نيابةً عن وزارة الداخلية — مكافأة خيالية. أما الجماهير، فبعضهم كان يحميه، والغالبية كانت موزعة بين السؤال عن آخِر «غني» سرقه والسؤال عن مصيره. إلى أن تواجه الغريمان عند إحدى المغارات بحلوان: الشرطة في الخارج، و«اللص» في كهفه يمسك مسدسًا ويقسم أنه لن يستسلم، وكم كانت شماتة الشعب وفرحته طاغية حين أَطلَق على رأسه الرصاص! أحسَّ الجميع أنه انتصر، شعروا أن «عدوهم الحقيقي» هُزم.

وشرع نجيب محفوظ يكتب «اللص والكلاب»! أما توفيق الحكيم فعلَّق قائلًا: هو إيه اللي بيحصل في البلد؟ الوحدة مع سوريا هي السبب. إحنا ما لنا ومال العرب يا ناس؟ هو احنا فاضيين للغم ده؟ ولَّا احنا غاويين مصايب بس؟!

كانت هذه فعلًا نقطة الخلاف الأساسية وربما الوحيدة بين توفيق الحكيم وجمال عبد الناصر. لم يعلنها، ولكنه بالتأكيد كان يضمرها ويجهر بها سرًّا بين خلصائه. بينما كان خلاف الشعب المصري مع عبد الناصر مغايرًا. كانت «الأجهزة» هي الغول الحقيقي الذي يهدِّد كافة المنجزات من الاستقلال إلى الوحدة إلى التأميم. كان الشعب موقنًا بأن هذه الأجهزة تتآمر على عبد الناصر نفسه، بضرب العزلة الجماهيرية من حوله، ببث الكراهية في إجراءاته، بإقامة الحاجز الأسطوري بينه وبين صوت الشعب وضميره.

ولولا أن عبد الناصر كان في بلغراد عام ١٩٦٠م لَمَا علم ... فوجئ باليوغسلاف يتحدثون عن مناضل شيوعي مصري كبير هو «شهدي عطية الشافعي» قد اغتيل في سجن أبي زعبل تحت سياط التعذيب. وكان أول عمل قام به عبد الناصر فور عودته إلى مطار القاهرة أنْ تقدَّمَ ببلاغ — باسمه الشخصي كمواطن مصري — إلى النائب العام يطلب التحقيق في الجريمة المذكورة!

وتوقفت حمامات الدم في السجون والمعتقلات المصرية، بعد أن استشهد على أيدي الجلادين المدرَّبين والمرضى، المناضلون فريد حداد، ومحمد عثمان، ورشدي خليل، وغيرهم كثيرون. وما زالت آثار السياط وكسر الأحجار وضرب الشوم على ظهور وأجساد الغالبية الساحقة من المناضلين المصريين.

وحتى …

حين صدرت قرارات الإفراج من رئيس الجمهورية قبيل منتصف عام ١٩٦٤م كان الصراع ضد المعتقلين والمسجونين السياسيين في الذروة التي أودت بحياة المناضل لويس إسحاق قبيل أيام من الخروج الكبير.

وكان توفيق الحكيم في ذلك الوقت يكتب مسرحية «طليعية» في غموضها بعنوان «يا طالع الشجرة»، بينما راح نجيب محفوظ بعد «اللص والكلاب» التي جعل فيها اللص «فدية الملايين»، راح يكتب «السمان والخريف» ليجعل من اليسار رمزًا للطريق الوحيد أمام التطور، ويكتب «الطريق» باحثًا عن الحرية والكرامة والسلام، ويكتب «الشحاذ» مستجديًا الحقيقة، ويكتب «ثرثرة فوق النيل» رافعًا مظلمة الحكيم القديم إيبوور إلى الفرعون الجديد، ويكتب «ميرامار» ناعيًا السقوط مستهولًا الفاجعة.

وإلى جانب نجيب محفوظ، كانت هناك قلة من الفرسان الذين غامروا بوضع الجرس في رقبة القط؛ بعضهم همس للرئيس بالحقيقة، والبعض الآخَر ساعد الأُسَر الجائعة والعائلات المشرَّدة والأرحام الثكلى و…

ولم يكُن المناضلون الذين عُذِّبوا إلى حد الموت يهتفون بسقوط عبد الناصر … قلة نادرة هي التي فعلت لزمن قصير، وعادت بسرعة إلى صوابها. وإنما كانت الغالبية — في ظلمة الأقبية وأفران الدم — تراه بطلًا قوميًّا. بل رأته إحدى الكتل الكبيرة مع بعض رفاقه «مجموعة اشتراكية في قمة السلطة».

لماذا كان الذين في قاع الجحيم يهتفون بحياة عبد الناصر، ولا يزالون إلى اليوم هم الذين يدافعون عنه؟ وأين … أين كان توفيق الحكيم؟

ببساطة لم تكُن القضية عند هؤلاء جراحًا شخصية. كانوا يرون الاستقلال والسويس والسد العالي والإصلاح الزراعي والتحضير والتأميم والتصنيع الثقيل ومجانية التعليم تستحق التضحية حتى الموت. وكانوا يرون الجحيم بعيون مفتوحة على الصراع الاجتماعي الضاري في باطن المجتمع وعلى قمة السلطة على السواء. ولم يكُن السجن والتعذيب والإفراج والقتل إلا جانبًا من هذا الصراع.

ولست أنسى مطلقًا جمال عبد الناصر في أواخر عام ١٩٦٩م حين اجتمع بأسرة «الطليعة» في مؤسسة الأهرام، وقال لنا بالحرف: لولاي ... لكنتم حتى الآن في الجبل. يقصد صحراء الواحات ومعتقل أبي زعبل بطبيعة الحال.

ليس معنى ذلك أنه بعيد عن المسئولية، فقد كان الانفصال وهزيمة ١٩٦٧م من الدروس التاريخية العنيفة التي تلقَّاها في حياته. وكانت مجزرة أيلول (سبتمبر) ١٩٧٠م بمثابة الدرس الأخير الذي انتهى بوفاته.

لقد دفع عبد الناصر الثمن فادحًا، لأنه رغم تجسيده العميق لأكثر الأجنحة تقدُّمًا في سلطة ٢٣ يوليو، فإنه لم يكتشف الصيغة الصحيحة للتحول الديمقراطي عن سلطة الإقطاع والفئات العليا من البرجوازية المصرية. ومن ثَم لم يكتشف الصبغة الصحيحة للتقدم الاجتماعي.

ولكنه — كما قلتُ — دفع الثمن غاليًا. ترك وراءه أعظم المنجزات (عروبة مصر وتطورها نحو الاشتراكية) في مهب الرياح ... وقد دفع الكثيرون الكثيرون، الثمن مضاعفًا حين جرءوا بنبالة الشهداء على مواجهته.

ولم يكُن توفيق الحكيم من بينهم!

إما أنه كان يصمت أو أنه كان يقول كلامًا يرادف الصمت ... وحين تكلم في المرات القليلة التي خلع فيها البيريه وألقى العصا، ماذا قال؟

قال مع التأميم «الطعام لكل فم» وكتب «شمس النهار» ممجِّدًا قيمة العمل متفائلًا بمستقبل العلم. ثم كتب عام ١٩٦٦م «بنك القلق» مشيرًا إلى أجهزة القهر والطغيان. وعند انتخابات الرئيس الثانية كتب في الأهرام: لقد انتخبته منذ ثلاثين عامًا، لافتًا النظر من جديد إلى بطل «عودة الروح». وحين رحل كتب أولى القصائد مطالبًا له بتمثال في أكبر ميادين العاصمة، يتم نحته وفق مسابقة عالمية بين الفنانين الكبار، ويسهم في إقامته كل مواطن.

وكان الحكيم — في يقيني — صادقًا كلَّ الصدق حين اتخذ هذه المواقف، وقال هذه الكلمات. إنه «كاتب النظام» الأول، سواء أكان بدعوته الباكرة إلى نظرية المستبد العادل، أم بموافقته العلنية والمستترة والضمنية لخطوات ٢٣ يوليو.

الوحدة العربية فقط كانت «الشوكة» في حلق الحكيم، وعندما انكسرت بالانفصال عادت مباركته لِمَا يجري أشد.

لم يفتح فمه بكلمة عن «الثقافة والحضارة» حين اعتقلتها الأجهزة في سراديب الموت. وحين طلب منه السلطان المشورة اعتذر بالشيخوخة وقلة الحيلة. وحين أطلعه البعض على قمصان الدم أشاح بوجهه عن اللون الأحمر قائلًا إنه يفرِّق بين الثقافة والسياسة.

من هنا، بالضبط تسقط أهليته لرفع الدعوى التي أقامها في مقاله السياسي الرخيص والمبتذل «عودة الوعي».

إنه ليس شاهدًا، ولا صاحب حق. وإنما هو بالدقة «المسئول الأدبي» عن النظام الذي يدينه، ولا تعنينا في القليل أو الكثير أكذوبته اللفظية التي يقول فيها: «أرجو من التاريخ ألَّا يبرئ شخصًا مثلي، يُحسب في المفكرين، وقد أعمته العاطفة عن الرؤية ففقد الوعي بما يحدث حوله.»

هذا النقد الذاتي الزائف ليس أكثر من شَرَك ينصبه لكلٍّ منا.

وقد سقط البعض منا للأسف في المصيدة. جميع الذين ناقشوه الحساب أخطئوا الحساب ... فهذا هو هدفه أو هدف الذين وراءه ... لقد أفردت الأخبار، وأخبار اليوم، وآخر ساعة، والمصور، صفحاتها للرد، ورد الرد، ورد رد الرد، وهكذا لمجرد ترسيخ الانطباع الذي تُوحي به السطور والكلمات والأحرف وحتى المساحات البيضاء.

لا تناقشوا مقال «عودة الوعي» فهو بالمقاييس كافة لا يستحق النقاش ... وإنما تأملوا معي هذه الحدوتة أو الحكاية، «كان يا ما كان رجل حكيم يحذِّر المشي وسط الشارع، يتكئ على ظِله جانب الحائط، يتنكَّر بالعصا والبيريه حتى يظنه العقلاء مجنونًا، والمجانين عاقلًا، عاش عمره في التبات والنبات وخلَّف صبيانًا وبنات. وحين بلغ ثلاثة أرباع قرن من الزمن المثلج وسط غابة مشتعلة، خلع ثيابه كلها دفعة واحدة، ووقف وسط الطريق عاريًا يصرخ في المارة بأعلى صوته: جلا جلا ... أنا حكيم الزمان وكل أوان. فلم يصدِّقه البعض، وتمتموا بلا مبالاة: نوع جديد من الحواة. وصدَّقه آخرون وقالوا ...»

ولم تكتمل الحدوتة أو الحكاية، ولكني سمعت أحدهم يغمغم بأسًى وحزن عميقَين: لقد سقط كاتب عظيم!

دار صحفية أم سفارة أمريكية؟!

أثناء المناقشات الواسعة التي جرت في مصر خلال الأسابيع القليلة الماضية حول «تطوير الاتحاد الاشتراكي» في مصر كتب علي أمين في «أخبار اليوم» مقالًا دعا فيه الشيوعيين المصريين إلى تكوين حزب علني مُعترَف به من الدولة. وبرَّر الكاتب دعوته بقوله: إن ضجيج الشيوعيين وهم تحت الأرض أكبر من حجمهم الحقيقي إذا رأت وجوههم الشمس. وإنه لا بد من أن يعرفهم الناس حتى لا يظل غموضهم مدعاة للجاذبية، فحين يعرفهم الناس على حقيقتهم سوف ينفَضُّون من حولهم، ويسقط سحر العمل السري. واقترنت دعوة علي أمين بدعوة أخرى تردَّدَت في مجلس الشعب المصري أثناء المناقشات، تُطالب الدولة بنشر أسماء الشيوعيين على الملأ.

ولعلَّه لم يعُد سرًّا أن مصطفى أمين قد اعترف في التحقيقات التي انتهت بمحاكمته وإدانته عام ١٩٦٥م، أن «دار أخبار اليوم» تملك جهازًا للمعلومات يعتمد على مصادر موثوقة محلية وأجنبية، وأن هذا الجهاز يتبادل المعلومات مع الأجهزة الأخرى المحلية والأجنبية. وكان واضحًا من التحقيق أن التنظيمات الشيوعية المصرية هدف رئيسي لهذا الجهاز، فلديه أسماء الشيوعيين، ووظائفهم، وأحوالهم الاجتماعية وتحركاتهم.

ومن المؤكَّد أن الحقائب الأربع التي سرَّبها مصطفى أمين — باعترافه — إلى شقيقه التوءم في لندن عن طريق السفارة الأمريكية في القاهرة، لم تكُن تحتوي على رسائل غرامية ... فالأرجح أنه منذ تسلم السيد خالد محيي الدين مسئولية «أخبار اليوم» بدأ الأخَوان في تنظيفها من الأسرار وتطهيرها من الوثائق. ولا شك أنه كانت بين «الأوراق الخاصة» ذلك الأرشيف السري الخطير المليء بالمعلومات عن الشيوعيين المصريين وغيرهم من المناضلين الوطنيين والديمقراطيين.

ومن ثَم فدعوة على أمين إلى تكوين حزب شيوعي علني، أو خروج هذا «الحزب» إلى السطح، وكذلك الدعوة إلى نشر أسماء الشيوعيين وغيرهم لا تتصل بفضول علي أمين أو حب استطلاع بعض أعضاء مجلس الشعب، لأن أرشيف علي أمين وملفات أجهزة الدولة لا تنقصها المعلومات. وإنما الأمر كله هو تصوير المناضلين سواء أكانوا شيوعيين أم ناصريين أم غيرهم وكأنهم «خوارج» العصر والنظام. تمامًا كالمعادلة السقيمة التي نشرها مؤخَّرًا صالح جودت في «المصور» حين قال إن الماركسيين ملحدون وإن المصريين مؤمنون، وإذَن فالماركسيون ليسوا مصريين! هكذا، فتَحْت مظلة رفع الرقابة يهدِّد دم الوطنيين في مصر إذا آمنوا بعروبة مصر والاشتراكية والمنجزات الإيجابية لعبد الناصر، فهذا كله «كفر» عند صالح جودت. أما عند علي أمين الأكثر ذكاءً، فالأمر يستحق تنظيمًا علنيًّا للشيوعيين! هل يمكن حقًّا لعلي أمين أن يكون «ديمقراطيًّا» إلى هذا الحد، أم إنها خدمة تُخفي مصيدة جديدة للمناضلين؟ لنقم إذَن بجولة في البناء الشاهق بشارع الصحافة بالقاهرة، تلك القلعة التي يسمُّونها تواضُعًا بدار أخبار اليوم.

عشت شهورًا قليلة في «أخبار اليوم» بين أواخر عام ١٩٥٦ وبدايات عام ١٩٥٧م. أخذني سلامة موسى ذات صباح إلى مكتب موسى صبري رئيس تحرير مجلة «الجيل» التي تُصدرها الدار أسبوعيًّا حينذاك. كانت المجلة طموحًا لأن تكون «تايم» العربية، حتى في طريقة الإخراج. وكان سلامة موسى كاتبًا لامعًا بين مختلف الكتَّاب الكبار الذين اختارهم مصطفى وعلي أمين بدهاء وبراعة، ممثلين لمختلف التيارات الفكرية قبيل ثورة يوليو ٥٢. كان سلامة موسى والعقاد وزكي عبد القادر وإبراهيم المصري وغيرهم يضفون على صحف الدار طابعًا «ليبراليًّا». ولكن الحقيقة هي أن الواحد منهم كان يكتب مقاله أكثر من مرة حتى يوافق عليه الرقيب مصطفى أو علي أمين. وكانت «أخبار اليوم» أول صحيفة مصرية ترفع أجور الكتَّاب والصحفيين، ولكنها مقابل ذلك كانت تستنزف أقلامهم استنزافًا، فهم يكتبون اليوميات في الأخبار والمقالات والمترجمات ورسائل القرَّاء في «أخبار اليوم» و«آخر ساعة» و«الجيل».

وكان لسلامة موسى صفحة أسبوعية في «الجيل» يخصِّصها عادةً للشباب. لذلك اقترح عليَّ أن أحرِّر الصفحة الثقافية. وافقت ووافق موسى صبري. وفي الأسبوع نفسه الْتَحق بالعمل معنا الزميل أحمد بهجت، وقد بزغ نجمه حين استطاع مع زميلتنا أمينة شفيق أن يُجريا تحقيقًا على الطبيعة أثناء العدوان عام ١٩٥٦ في بور سعيد.

كنت في ذلك الوقت واحدًا من مجموعة الشباب الجدد في حقل الثقافة المصرية، نجتمع في بيوتنا أو في المقاهي الشعبية أو نسيح في الشوارع، وننشر إنتاجنا في المجلات اللبنانية، حماسنا يطوي أيامنا، واندفاعنا يطوي لياليا، وطموحنا يروي أحلامنا بشهوة تغيير العالم.

والقلة القليلة التي استطاعت منا أن تنفذ إلى جريدة «المساء» برئاسة خالد محيي الدين أو مجلة «صباح الخير» برئاسة أحمد بهاء الدين، أفلتت أحلامها من سجن الواقع المر للصحافة المصرية، أما أنا (وغيري)، فقد كان رئيس التحرير أو سكرتيره (المرحوم توفيق بحري) ينشر مقالًا ويشطب أربعة، ويسألني كل مرة، مَن هو يوسف إدريس أو عبد الرحمن الشرقاوي، أو ألفريد فرج، أو صلاح عبد الصبور؟ هل قرأت «لا أنام» لإحسان، أو «إني راحلة» ليوسف السباعي، أو «شباب امرأة» لأمين يوسف غراب؟ هؤلاء هم أعمدة الثقافة المصرية. لا تكتب عن المغمورين حتى لا تصبح مثلهم، إنهم لا يكتبون كلامًا مفهومًا.

واصطدمتُ بموسى صبري مرارًا، ولكنه تحمَّلني إكرامًا لسلامة موسى. إلى أن وقعت الواقعة بانتخابات الاتحاد القومي وقد رشَّح نفسه عن دائرة قصر النيل، وهي الدائرة ذاتها التي رُشِّح فيها مجدي حسنين. وعقد موسى اجتماعًا للمحررين بسطَ فيه مجموعة من الخرائط لإحياء الدائرة الانتخابية. وطلب منَّا — شبابًا وشابات — أن نساعده في المعركة. وسجل صوت عبد الحليم حافظ على شريط يغنِّي أمجاده، ورفع اللافتات التي تقول: «انتخبوا موسى صبري الذي لم يؤسس مديرية التحرير»، أو تقول: «انتخبوا موسى صبري ... كاتب حُر لم يركع لحاكم». وأعلن لنا في سرور بالغ أن أجمل الممثلات وأشهر النجوم، سوف يقيمون المآدب احتفالًا ودعوة إلى انتخابه. وفوجئ بي أرفع إصبعي وسط الاجتماع أطلب الكلام. قلت:

إننا كمحررين في هذه المجلة يجب أن نظل بمنأًى عن المعركة الانتخابية ما دمتَ أنت بالذات مرشَّحًا.

أسكتني الزملاء وتجهَّم وجهُه قليلًا، ثم تمالك نفسه وسألني مازحًا: هل أنت شيوعي؟

قلت: لماذا؟

أجاب: لأن الشيوعيين فقط ضدي ويؤيدون مجدي حسنين. قلت له: أنا لست من أبناء هذه الدائرة فلن أنتخب أحدكما، ولكني أعتذر بصراحةً عن المشاركة في هذه المعركة، لا أستطيع مساعدتك.

وخرجت من الاجتماع. ولم أعُد إلى «أخبار اليوم» من ذلك الوقت!

ولكن معركة أخرى كانت تنتظرني مع «ملوك القلعة» بعد هذا التاريخ بقرابة عام. كنت قد ذهبت مرة أخرى برفقة سلامة موسى إلى «دار روز اليوسف» لمقابلة أحمد بهاء الدين للعمل في «صباح الخير». انتقل معي بالصدفة وحدها أحمد بهجت. وكان سلامة موسى مشغولًا بتأليف كتاب حول «الصحافة حرفة ورسالة» وكنت مشغولًا بكتابة دراسة نقدية لسلامة موسى وفكره. وقد أطلعني على مخطوط الكتاب فصلًا فصلًا، قبل أن يسلِّمه إلى «أخبار اليوم» لإصداره ضمن كتابها الشهري. ومات سلامة فجأة في ٤ أغسطس (آب) ١٩٥٨م. ولم يكَد يمضي أسبوع حتى ظهرت إعلانات مكثفة عن الكتاب. وقد بيعت منه عشرات الألوف من النسخ في أسبوعين فقط، كان السعر رخيصًا للغاية، والمؤلف نجم لامع مات حديثًا. وتصفَّحتُ الكتاب وكاد يُغمى عليَّ! لم يكُن الكتاب عن الصحافة لا كحرفة ولا كرسالة، وإنما كتاب عن مصطفى وعلي أمين و«أخبار اليوم»! واتصلت فورًا بالدكتور رءوف الابن الأكبر لسلامة موسى، وكان يعمل حينذاك باحثًا بالمركز القومي للبحوث قبل تعيينه أستاذًا بجامعة الإسكندرية. وكتبتُ مقالًا يشتمل على كافة الحقائق بجريدة «المساء». لم يكُن المخطوط لدى أحد منا. ولكن أسرة الفقيد رفعت دعوى أمام القضاء تُطالب الناشر بتقديم المستندات. وحاول علي أمين أن يعطي الأسرة كلَّ ما تطلبه من مال مقابل التنازل عن القضية. ولكن المشكلة هي أن الكتاب المزيَّف كان عدوانًا على تاريخ سلامة موسى بأكمله. ولم يرضخ أحد للإغراء ولا للتهديد (ظلَّ التوءمان يشيعان في كل مكان أن رءوف سلامة وغالي شكري من الشيوعيين الخطِرين، وأن قضية الكتاب مدفوعة من الحزب الشيوعي المصري!) ... وكسبت الأسرة قضيتها وصادرت النيابة بعض النسخ المطبوعة التي وجدت، وكذلك المخطوط الأصلي! هنا كانت المفاجأة الحقيقية. وطبع الكتاب من جديد طبعته «الأولى» الصحيحة.

هذا ما فعلوه مع سلامة موسى في حياته وموته. مع العقاد فعلوا العكس للوصول إلى النتيجة ذاتها. كان الرجل معاديًا لثورة يوليو دون لف أو دوران، عن قناعات فكرية خالصة، فهو بتكوينه الخاص وقف ضد الإجراءات كافة التي اتخذتها قيادة الثورة، والأشكال السياسية كافة التي خلقتها. ولكن أصحاب «أخبار اليوم» هم الذين فتحوا له أبواب مؤسسة فرانكلين ومكتب الاستعلامات الأمريكي وسلسلة «الناقوس» التي كانت تصدرها مكتبة الأنجلو المصرية للهجوم على الشيوعية والشيوعيين والاشتراكية والاشتراكيين، ولتزيين الوجه القبيح لأمريكا وترجمة المؤلفات المعادية للاتحاد السوفييتي

والصين. كان العقاد طاقة ضخمة، وكان مؤمنًا بما يقول، ليس مأجورًا في معتقداته. ولكن هذه «المعتقدات» وجدت هوًى لدى التوءمين فأسَّسا «المختار» لزكي عبد القادر، وأصبحا همزة الوصل بين العقاد والأجهزة الأمريكية. لقد الْتَقت موضوعيًّا الأهداف والوسائل وإن اختلفت الأصول والقناعات، فالمصادر واحدة لضرب الاشتراكية ودعاتها، العروبة وأنصارها، ثورة يوليو وإنجازاتها.

و «جمع النقائض» على طبق واحد لتظهر الدار كما لو كانت قلعة الليبرالية في مصر، هو منهج «أخبار اليوم» في توزيع الأدوار والمواد. إنها كما تنشر «الثقافة الثقيلة الدم» التي يكتبها العقاد وسلامة موسى، فإنها تنشر الصحافة الخفيفة الظل، والتي لخَّصها آل أمين في المثل الشائع «ليس خبرًا أن يعض الكلبُ رجلًا، وإنما الخبر أن يعض الرجلُ كلبًا»، هكذا اخترعوا «ليلة القدر» كل سنة، حيث تصلهم عشرات الألوف من رسائل القرَّاء الذين يطلبون من السماء شيئًا في ليلة القدر، فيستجيب ملائكة الرحمة مصطفى وعلي أمين طبعًا، وينتشلون واحدًا من المعذَّبين في الأرض، ويرسلون إليه بالهدية التي طلبها. أو هم يعمدون إلى اختيار مريض على عتبة القبر يحيطون بكافة مظاهر الرعاية والحب والسعادة، وكأنهم يرجونه أن يطلب ما يشتهي قبل الموت. هكذا فعلوا بمريضة شهيرة اسمها ليلى أُصيبَت بالسرطان. أعطوا عريسها — وكان قد عرف بنهايتها — مبلغًا كبيرًا ليُزَف إليها، وأقاموا لها «فرحًا» خرافيًّا كليالي ألف ليلة وليلة، غنَّت فيه أشهر المطربات ورقصت أشهر الراقصات، وهبطت على العروس أغلى الهدايا. وبعد أيام ماتت ليلى، كما مات غيرها، ويموت المئات من مرضى السرطان.

وكانت ضربتهم ذات يوم، حين علموا بأن الأديب «صبحي الجيار» أقعده المرض عن الحركة منذ الصبا، ولا أمل في شفائه. احتفلوا به احتفالًا أسطوريًّا مماثلًا لفرح ليلى، وعيَّنوه محرِّرًا — من فراش المرض — بـ «آخر ساعة». وسافر إلى لندن بغية العلاج ولكن دون جدوى!

لماذا إذَن؟

إنهم على صعيد الفكر يشيعون فكرة «الحظ والقدر والمصادفة» وهم سادة الدعوة إلى الحداثة والعصرية والحضارة الغربية! وهم على صعيد المجتمع يختارون «الفرد» الذي تنفتح له طاقة السماء ليلة القدر، والذي يُؤخَذ من فراش المرض ليعرف السعادة قبل أن يموت، أو ليشم رائحة الأمل قبل أن يستقر في قاع اليأس. الفرد أولًا وأخيرًا، فالملايين لا تنفتح لهم سماء آل أمين ليلة القدر، وهناك ألوف «ليلى» و«صبحي الجيار» لن تزفهم

صباح ولا شادية ولا نجوى فؤاد. الحظ والفرد ثم «نموذج الصحافة الناجحة»، ففي غمرة انحطاط الوعي العام يجذب الفضول عيون الناس إلى هؤلاء الفرسان المنقذين، ما دام الخلاص بـ «أخبار اليوم».

وفي القضايا العامة هم «جاهزون» دائمًا، فما أن تسرب إليهم شعاع الضوء الأخضر عام ١٩٥٩م بالهجوم على الشيوعية حتى تحولت دار أخبار اليوم إلى سفارة أمريكية أكثر مَلَكية من المِلك. وكانت «الكراسة الرمادية» التي زيَّفوها كدأبهم على مرِّ التاريخ الصحفي المعاصر هي رسالتهم إلى المصريين التي يهدرون فيها دماء الشيوعيين «الملاحدة». وأصدروا النشرات والمنشورات كأي مكتب استعلام نشيط، عن «جهنم الحمراء» في الصين وكوريا الشمالية والاتحاد السوفييتي وألبانيا! الصور الملوَّنة الزاهية على ورق الكوشيه بملاليم وأحيانًا مجانًا، وقد رسمت بالأحمر القاني «مذابح الذئاب الملاحدة». هكذا — جنبًا إلى جنب — مع مقالات أنيس منصور في ذلك الوقت عن الوجودية وأهميتها العظمى في التخلي عن «حائط نسميه الله» لنواجه الحياة بشجاعة وحدنا بلا سند. أما الحياة كما صورها أنيس منصور فهي تلك التي يعيشونها في الحي اللاتيني عرايا أو أشباه عرايا والجنس مجانًا لَمن يريد ويستطيع، في الطرقات والحدائق، الرجال والنساء يضاجعون بعضهم بعضًا بلا ضابط من «القيم القديمة».

هكذا حاربوا الإلحاد «الشيوعي» ودعوا إلى الإلحاد «الوجودي» في الوقت نفسه. وكانوا مزيفين للشيوعية والوجودية كلتيهما، فالكراسة الرمادية من صنعهم وجهنم الحمراء رسموها بريشة المخابرات الأمريكية، والوجودية — كما يعرف مدرس الفلسفة السابق أنيس منصور — لم تكُن غانية تعرض جسدها للبيع!

وإنما استغلال انخفاض مستوى الوعي في مصر هو الذي أتاح لهم الانتشار الجماهيري الساحق، فقد أدركوا مبكِّرًا قيمة الإعلام كوسيلة مواصلات عصرية: بالصورة، والجملة القصيرة، وصناعة النجم، والصِّلات المشبوهة التي تمدهم بالمعلومات والأخبار وشركات الإعلان ... تمكنوا من الوصول إلى كل بيت.

ويُعد أنيس منصور من أهم النماذج التي جسَّدَت براعتهم في صناعة النجوم. مدرس الفلسفة الشاب يجيء ليترجم قصصًا من الأدب العالمي، ويلخِّص كبرى المدارس الفكرية فيكتشفون «موهبته» ككاتب، وطاقته على العمل. ثم يُجْرون له غسيل المخ اللازم، بالمرتب الكبير والمكتب الفاخر والشهرة اليومية. ويلتقي الاستعداد الخاص مع قانون العرض

والطلب، وشيئًا فشيئًا ينسى الشاب المثقف الفلسفة والعلم وتصبح الصحافة هي «الدون جوانية» والسياحة وترجمة أغلفة الكتب إلى لغة باهرة ومثيرة توهم القراء بأنهم أصبحوا مثقفين.

ولم تذهب صناعة «أنيس منصور»، عبثًا، فقد حمل على كتفَيه الميراث الأيديولوجي لآل أمين في غيابهم المؤقت. حمل الجوهر وتخلَّى عن المظاهر الخارجية، أو هو وضع هذا الجوهر في إطار ذاته «المبدعة» وخصائصها المستقلة. كانت «ليلة القدر» و«ليلى» و«صبحي الجيار» هي المظاهر الخارجية لأيديولوجية «أخبار اليوم» القائمة على تقديس الحظ والمصادفة وتأليه الفرد، جوهرها الحقيقي محاربة الحد الأدنى من الاشتراكية والتحرر الوطني والدعوة المباشرة إلى التبعية للغرب.

وكان من الطبيعي أن يتقلَّص دور التوءمين بعد قرارات «تنظيم الصحافة» التي تُشبه التأميم. خاصة وقد توالى على الدار رؤساء مجالس إدارة من أمثال: كمال رفعت، وخالد محيي الدين، ولكن تقلُّص الدور الشخصي للتوءمين لم يتسبب في غيابهما أيديولوجيًّا، وكان موسى صبري، وأنيس منصور — على وجه التحديد — هما أكثر التعبيرات أصالة عن فكر «أخبار اليوم».

وفي غمرة معاناة الوطن من معاركه السياسية والفكرية ضد الاستعمار والرجعية المحلية، عاد أنيس منصور من رحلته إلى الهند ليكتب (عام ١٩٥٨م) عن كيفية تحضير الأرواح في السلة. وانتشر الوباء في مصر طولًا وعرضًا. كانت قراءة الكف والفنجان من العادات الشائعة ولو من قبيل التسلية. وكان تحضير الأرواح، كالتنويم المغناطيسي، يهمس به الناس ولا يكادون يصدِّقون. أما أن تحضر الروح في السلة فقد أصبحت «لعبة شعبية» يمارسها الصغار والكبار في البيت والشارع والمدرسة. وكانت صناعة النجم قد كفلت لأنيس منصور أن يخترق مختلف وسائل الإعلام، حتى حين كان الأمر يدعوه إلى الوقوف أمام محل البن البرازيلي في شارع سليمان باشا يشرب القهوة صباحًا ويوقِّع على أتوجرافات المراهقين والمراهقات. هكذا كانت الجاذبية الدون جوانية، وافتعال الفضائح أحيانًا، وسحر النجوم، عاملًا خطيرًا في تصديق شائعة «تحضير الأرواح بالسلة، فضلًا عن الميراث الغيبي المصري والشقاء الاجتماعي الذي يهيِّئ الناس لالتماس العزاء بعيدًا عن الواقع الكثيف على سطح الأرض.

وانتهت البدعة وأقبلت هزيمة ١٩٦٧م، فاستولت المشاعر العنصرية فجأة على «الأخ» أنيس منصور وراح يهاجم التوراة واليهود من منطلق ديني بحت. لم يكُن قبلها قد ناقش

الصراع العربي الإسرائيلي بحرف. حتى حين تعرَّض الوطن لعدوان ١٩٥٦م كان مشغولًا بعرايا الحي اللاتيني. لكنه فجأة أصبح شيخًا وفقيهًا (برفقة صاحب الفضيلة مصطفى محمود الذي بدأ حياته بداية مشابهة وأنهاها بخاتمة مشابهة. حين أصدر أنيس منصور كتابه الرصين نوعًا حول الوجودية أصدر مصطفى محمود كتابه الرصين نوعًا حول الله والإنسان ... بعدئذٍ انخرطَا في صفوف المجاذيب والدراويش، ولكنهما يمسكان بمسبحة العلم حبة حبة). ومَن يقرأ اجتهادات الشيخ أنيس عن اليهود واجتهادات الشيخ مصطفى في كتابه «التوراة» يشعر كما لو أن هناك مؤامرة — فيما لو ترجمت هذه الكتابات إلى لغة أجنبية، وإسرائيل قادرة على ذلك — تهدف إلى تصويرنا هتلريين نازيين وفاشست. وقد أصاب كلاهما بحسن نية أو سوئها، لا يهم ما دامت النتيجة واحدة، عصفورين بحجر واحد. أولهما: تقديم عزاء «ديني» لفاجعة ٦٧ يحمل تبريرًا لها وحلًّا لمشكلتها. والآخَر إمداد العدو وأنصاره — بوعي أو دونه لا يهم، فالنتيجة أيضا واحدة — بسلاح دعائي ضدنا.

وحين وصل الإنسان إلى القمر، تمكن أنيس منصور من استغلال هذا الحدث العلمي العظيم لخدمة أهداف مُعادية للعلم تمامًا ... إذ راح تحت عنوان «الذين هبطوا من السماء» يزعم أن أهرامات الجيزة قد بنَتْها بعض الكائنات التي زارت بلادنا في القديم من كواكب أخرى.

ثم كانت أحداث البدع المنصورية حين تحدَّث في الإذاعة عن «واقعة يحار المرء في تعليلها!» موجزها أن أحدهم كان يقود سيارته في طريق صلاح سالم بالقرب من المقابر، وإذا به يشاهد امرأة ترتعد من البرد وقد بلَّلها المطر، فيوقف السيارة وتركب من خلفه لا إلى جانبه، ويناولها معطفه، وفجأةً ينظر إلى الخلف بعد فترة من الزمن فلا يجد المرأة ولا المعطف. يوقف السيارة ويبحث عن المرأة بين المقابر فيرى معطفه معلَّقًا على إحداها. وقد كُتب على المقبرة اسم سيدة متوفاة في ربيع العمر ... تمامًا كما هي مواصفات المرأة التي كانت في سيارته منذ لحظات! ويطلب الكاتب الهمام — طبعًا — من علماء الدين والنفس والفلاسفة استقراء هذه الظاهرة وتعليلها. وبدأ الناس يخشون طريق صلاح سالم، ويتحدثون في البيوت والمقاهي ومكاتب العمل عن الشابة الجميلة الميتة التي تظهر ليلًا. وبعد أسبوعين كاملين ظهر إنسان شجاع توجه إلى الإذاعة، وطلب من صاحب البرنامج أن يقرأ ما بين يديه. وإذا بها قصة لكاتب لبناني، محض قصة فنية نقلها أنيس منصور إلى الناس كواقعة حدثت بالأمس في مصر. وكان صاحب البرنامج هو الآخَر شجاعًا فأذاع القصة، وكانت فضيحة مدوية!

ولكن أنيس منصور لن يتوقف، فهذا الفكر التخديري، والذي لا علاقة له بالدين مطلقًا، إنما هو امتداد لمنهج «ليلة القدر». لقد تواتر على «دار أخبار اليوم» رجال وطنيون كخالد محيي الدين، وكمال رفعت، ومحمود أمين العالم، ولكنهم لم يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا في «القلعة». بل لعلَّ بعضهم أخطأ حين كان يتصور أنه من الممكن اجتذاب العناصر الموالية لفكر «أخبار اليوم» إلى دائرة الفكر الوطني بمزيد من المكافآت والامتيازات، أو بعكسها، أي بالتحرشات والتشنجات! لقد أُدين مصطفى أمين في قضية التجسس للمخابرات الأمريكية، وظلَّ علي أمين هاربًا تسع سنوات، ولكن «أخبار اليوم» في غيابهما لم تتغير. ظلَّت كما هي. حتى أنهما حين عادا إليها كأن شيئًا لم يحدث والزمن لم يمضِ.

ولكن أشياء كثيرة في الواقع حدثت والزمن في الحقيقة اختلف. لذلك كتب موسى صبري كتابه الشهير «شيوعيون في كل مكان» مادحًا الدول الاشتراكية. وهو الكتاب الوثيقة التي يقدمها لليسار في انتخابات نقابة الصحفيين كأوراق اعتماد. ولكن اليسار يعرف اللعبة فيرفضه. ثم يذهب إلى الصحفيين المسيحيين في السر ويقول لهم: هل أصبح محرَّمًا على المسيحي أن يكون نقيبًا للصحفيين؟ ولكنهم أيضًا يعرفون اللعبة فلا يجيبون على السؤال، وإنما ينتخبون المرشَّح الآخر!

تغيَّر الزمن حتى أن علي أمين لم يستطِع البقاء في «الأهرام» شهورًا قليلة، وحين أراد أن يهاجم الشيوعيين والوطنيين والديمقراطيين، لم يتهمهم بالإلحاد ولا بالانحلال ولا بالدموية ولا بالدكتاتورية ... وإنما راح يهاجم عبد الناصر والتأميم والإصلاح الزراعي والسد العالي والسوفيات فقط لا غير، وراح يبعث من القبور باشوات العهد الملكي!

وكانت آخِر نكتة أنه يطالب للشيوعيين بحزب علني حتى يعرفهم الناس!

اطمئن يا علي بك، فالناس تعرفهم وتعرفك. وتذكر حين رأيتك آخر مرة في بيروت منذ عام ونصف بادَرْتني قائلًا: لم تتغير. وأجبتك: وأنت أيضًا!

تُرى ... هل فهمت؟! إياك فحسب أن تتوهم، وأنت في مكتبك القديم بالدور التاسع، أن الزمن لا يتحرك ... إنه في حركته السريعة أحيانًا يبدو ساكنًا. ولكنك حين تفيق من الحلم — ويكون الوقت قد فات — سوف تدرك أن كل شيء يتغير، كل شيء ... إلا التغير ذاته.

جمال عبد الناصر

بقلم وصوت صالح جودت

برغبة «سامية» من أمير الكويت، بدأت قصة أغرب من الخيال ... كان الأمير هو آخر من تسنَّى له عناق جمال عبد الناصر من الرؤساء والملوك العرب ... وقد ترك فيه نبأ الرحيل المفاجئ للرئيس المصري أثرًا نفسيًّا عميقًا، فما كاد يهبط بطائرته الخاصة مطار الكويت بعد ظهر ٢٨ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٠م حتى همس في أذنه أحد الرجال أن عبد الناصر يُعاني الآن لحظات الاحتضار ... وبعد ساعات قليلة وصله الخبر رسميًّا أن الرئيس مات!

ربما كان الأمير هو أول الزعماء العرب الذين عرفوا بحقيقة الأمر ... وكانت قُبلة عبد الناصر على خده ما زالت تنضح بالعرق!

مضت أيام العزاء بطيئة ثقيلة، والذكرى جاثمة على صدر الأمير، ويُقال إن أَرَقًا حادًّا أصابه في تلك الفترة، فاستعصى عليه النوم ليالي طويلة. وأفضى إلى بعض أصدقائه في القاهرة بالمشاعر المريرة التي لا تفارقه، وقال إنه على استعداد كامل للمساهمة في أي تخليد للرئيس الراحل.

ثم اشتبكت أسلاك التليفون بين القاهرة والكويت اشتباكًا عنيفًا ومتلاحقًا ...

كان الخط الأول لأحد الأجهزة المصرية، يكلِّم على الخط الآخر الفنانة المصرية الكبيرة مديحة يسري، وكان يقول: هل لدى شركة الموارد الثقافية والترفيهية استعداد للقيام بعمل جاد خلال أسبوع؟

وأجابت مديحة بصوتها الوقور الناعم: أي خدمة يا فندم ... تحت أمرك.

سألها باحترام: هل تعرفين الشاعر صالح جودت؟

قالت بهدوء: طبعًا يا فندم.

في لهجة آمِرة مهذَّبة اختتم الحديث: اتصلي به!

كانت مديحة يسري وقد اعتزلت السينما وجرَّبت بعض أشكال التجارة المشروعة في القاهرة، قررت أن تجرِّب حظها في شركة فنية بالكويت، تقوم أساسًا بالتسجيلات الإذاعية وغير الإذاعية ... برفقة مجموعة من رجال المال والأعمال في كلٍّ من الكويت والقاهرة. ولم يكُن «الصوت» الذي كلَّمَها جديدًا عليها، ولا كان صالح جودت صديقًا جديدًا. وطلبت صالح جودت على الفور: أيوه يا صالح ... إزي أخبارك ... قالوا لي أتصل بيك ... خير إن شاء الله!

خير يا دوحه ... الأمر وما فيه إني ألفت كتابًا عن الرئيس الراحل. وبيقولوا انِّك ممكن تنشريه وتسجليه كمان ... بصوتي يعني ... إيه رأيك؟ ما تفكريش في الفلوس من ناحيتي ...

اندهشت مديحة قليلًا، فهي تعرف أن صالح جودت رغم كرمه الشهير لا يفرط في حقوقه المادية مطلقًا، بل هو يتخذها مقياسًا لتقديره المعنوي. ولكنها حين تسلَّمَت المخطوط، كان صالح جودت قد تسلَّم شيكًا قيمته ستة آلاف دينار كويتي. وقد أصرَّ على ألا يفتح حسابًا به خارج مصر، فتقاضي ١٢ ألف جنيه مصري في القاهرة.

وبدأ المسئولون عن النشر يقرءون المخطوط، وكان تقريرهم أنه جاء مطابقًا للمواصفات وفيًّا بالاتفاق المعقود بين الجهة الكويتية والجهات المصرية، ملبِّيًا «الرغبة السامية» لأمير الكويت.

كان عنوان الكتاب «قصة كفاح البطل جمال عبد الناصر». وقد نهج فيه المؤلف نهجًا تسجيليًّا، فاستعرض حياة الرئيس منذ الطفولة إلى الوفاة.

وكان أحد المسئولين عن نشر المخطوط وتسجيله على أشرطة ممَّن يمكن أن نُطلق عليهم اسم «الناصريين المتطرفين»، فقد هز رأسه معلِّقًا: إنه كتاب رائع لدرجة أنني أشك في موافقة صالح جودت على وضع اسمه فوق الغلاف. صالح جودت ليس منافقًا كما يظن البعض، لأنه غنَّى للملك ومحمد نجيب وعبد الناصر. إنه يريد أن يعيش، ولكن قلبه وعقله ضد عبد الناصر، فكيف يسمح لنا بتوقيعه على مثل هذا الكتاب؟

وأجابت مديحة يسري: ليس توقيعه فحسب، وإنما صوته أيضًا. المطلوب أن يسجله بصوته على شريطين، فالكتاب مُعَد للقراءة والسماع. سألها الأخ الكويتي ببراءة: وما الحكمة في التسجيل الصوتي؟ إنه ليس قصيدة أو أغنية أو تمثيلية. واكتفت مديحة بأن تجيب: هذا هو المطلوب، اسألهم أنت!

وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٧٠م صدر الكتاب مطبوعًا مسجَّلًا على شريطَين، وكُتب على ظهر الغلاف «اسمع هذا الكتاب على شريطين (كاسيت)، كلٌّ منهما ٦٠ دقيقة». وأنه من إنتاج «شركة الموارد الثقافية والترفيهية. ص.ب٢٢٨ الكويت» بصوت صالح جودت وتنفيذ مديحة يسري. ولم يُذكر سعر الكتاب، ولم يُطرح علنًا في الأسواق، ولكنه وُزِّع بطريقة سرية على بعض الناس، ولم يَعرف عنه الجمهور الواسع شيئًا.

ماذا كتب صالح جودت، وماذا قال بصوته؟ قبل ذلك افتتَحَت الكتابَ قصيدةٌ باسم «سمير غبور» جاء فيها عن «الجماهير» يوم رحل القائد:

وتمنَّت في حنايا النعش لو نامت ... وقامَا
كانت الناس على النعش قلوبًا تترامى
وتُنادي: لمَ لا يُحييه مَن يُحيي العظامَا
لمَ لا يُبقيه كالنِّيل وكالشمس دوامَا

ثم يبدأ صالح جودت «قصة كفاح البطل جمال عبد الناصر» بقوله (ص٩): «عاشت مصر أجيالًا طويلة في انتظار البطل ...»

وكانت الأقدار تصنع هذا البطل منذ حين، وتعده للوثبة الكبرى التي انطلقت في ٢٣ يوليو في سنة ١٩٥٢م». واستطرد قائلًا إن مصر أنجبت في تاريخها الحديث كثيرًا من الأبطال كعمر مكرم وأحمد عرابي ومصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول، ولكنهم جميعًا كانوا زعماء محليين ينادون «مصر للمصريين» أما جمال عبد الناصر «فقد نظر إلى مصر كجزء لا يتجزأ من كيان أكبر، هو الأمة العربية من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي» فأصبح زعيمًا عربيًّا «ثم نظر إلى الأمة العربية كجزء من عالم أكبر» فأصبح زعيمًا للعالم الثالث.

وراح صالح جودت يعدِّد منجزات عبد الناصر في النقاط التالية، أنقلها حرفيًّا:

(١) «كان لثورة البطل على حلف بغداد أثرها في تقويضه، فقد انهارت الملكية في العراق، وسقط نوري السعيد بطل هذا الحلف، وقامت في بغداد ثورة كثورة مصر في يوليو ١٩٥٨م» (ص٤٥).

(٢) «وقف وقفته المشهورة في الإسكندرية يوم ٢٦ يوليو ١٩٥٦م — ذكرى طرد المِلك — يُعلن حدثًا من أكبر أحداث التاريخ المصري: تأميم قناة السويس» (ص٥٤).

(٣) «راح البنك الدولي ودول الغرب — وفي طليعتها الولايات المتحدة الأمريكية — تساوم وتضع القيود والشروط للمساهمة في بناء السد العالي ... بينما الاتحاد السوفييتي يتقدَّم بعرض سخي يعرض فيه تقديم ما يعادل أربعمائة مليون دولار، وهو مبلغ كافٍ لبناء السد تمامًا، بغير فوائد، على أن يُسدَّد خلال ستين سنة، واطمأن البطل إلى مصير السد العالي» (ص٥٤).

(٤) «كانت الوحدة نتيجة طبيعية للتفاعل العربي، ولجهاد البطل في سبيل دعم الفكرة العربية وتأصيلها في النفوس لمواجهة إسرائيل والاستعمار عامةً» (ص٦٤).

(٥) «الشعب الذي تمثَّلت كل آماله في البطل، حتى بعد النكسة، كان يرى أن بقاءه هو الأمل الباقي في إزاحة الغمة والسير بالسفينة إلى بر الأمان. وخرجت القاهرة برمتها، برجالها ونسائها، وشيوخها وأطفالها، غير مبالية بالظلام ولا بالغارات، وسارت إلى بيت البطل تتوسَّل إليه أن يبقى. وجاءت الملايين من كل فج عميق من أنحاء مصر تردِّد نفس الصرخة. ولم يبرح الناس مكانهم حول بيت عبد الناصر، إلا عندما طلع الصباح التالي، ورأى البطل أن آمال الأمة مُعلَّقة به، وأن الشعب مُصِر عليه، رغم النكسة، لأنه الوحيد القادر على تحويلها إلى نصر» (ص٩٣).

(٦) «بدأ يرأب الصدع، ويطهِّر الانحرافات، ويكفل الحريات، ويبحث عن الرجال الصالحين، ويُعيد بناء الجيش الذي ذهب أكثر رجاله وأكثر عتاده، ويوثِّق العلاقات بالاتحاد السوفييتي الذي أمدَّ مصر بكل ما يكفي لها إعادة بناء قواتها البرية والجوية» (ص٩٥).

(٧) «وجاء اليوم الذي شعرت إسرائيل فيه بأن ساعة الصفر تقترب، وأن القوات المصرية أصبحت قادرة على شيء أكثر من الردع، هو العبور» (ص٩٩).

(٨) «كان البطل يحس أن الموت يلاحقه، وأنه يريد أن ينجز رسالته الأخيرة ويوقف نزيف الدماء في الأردن، ويحفظ على الأمة العربية وحدتها، وهي أمل النصر قبل أن يموت» (ص١١٢).

(٩) «وفي الساعة الحادية عشرة من المساء ... روعوا بالنبأ ... روعوا بصوت أنور السادات، باكيًا، ينعى لهم أكبر الآمال في تاريخ مصر والأمة العربية. وشُقَّت القلوب، وخرجت القاهرة كلها ... بكل الملايين الخمسة التي تعيش على أرضها ... تبكي طول الليل ... وأُضيفَت إليها جموع أخذت تزحف على القاهرة من جميع أنحاء الجمهورية، وفي جميع فجاج الأمة العربية ... وظلَّت الجموع تتكاثر حول الفاجعة الكبرى، وتصل وفود الملوك

والرؤساء وممثِّلو الشعوب والمجالس النيابية والهيئات الشعبية من جميع أنحاء العالم، ليشيعوه إلى مثواه، في مشهد لم يُروَّع التاريخ بأروع منه، ولا أشجع منه. وذهب البطل إلى لقاء الله. وترك وراءه أروع صفحة في سجل الخلود» (ص١٣٧، ١٣٨).

بهذه السطور يختتم صالح جودت «قصة كفاح البطل جمال عبد الناصر»، ولكنه أراد أن يثبت قصيدته التي كتبها غداة وفاة الرئيس، فنشر على الصفحتين (١٤٠ و١٤١) نصها الكامل نجتزئ منها بعض الأبيات فحسب. تحت عنوان «أغنية على قبر البطل» يقول:

تملأ الأسماع والأبصار إيمانًا ووعيَا
كنتَ إلهامًا ووحيَا
ترسم الدرب لشعبٍ شاءَ أن تحيا لِيحيَا
غيرَ أن الدهرَ خلَّاف التمنِّي
فأعِنِّي أيها الصبر أعِنِّي
كيف أبكي وأغنِّي؟

إلى أن يقول:

الْتَمسنا في بطولاتك إشعاعًا ووهجَا
وجعلناك محجَّا
ووجدنا في وصاياك لنا العهد المُرجَّى
لِخُطى المستقبل الحلو الأغنِّ.

مَن يتصفح الكتاب دون عناء التأمل العميق، سوف يلاحظ مباشرة أنه أشبَه ما يكون بمنشورات مصلحة الاستعلامات أو مطبوعات التوجيه المعنوي بالقوات المسلحة، إنه يُدرَج بسهولة في قائمة «كتب بلا مؤلفين» فهو لا يحتاج إلى كاتب يؤلِّفه، وإنما إلى أرشيف. ولأن الكتاب قد تم إنجازه ونشره وتسجيله في شهر واحد بعد وفاة الرئيس، ولأنه أيضًا لم يُوزَّع مع الباعة، ولم يُكتَب عليه سعر النسخة، ولأنه طُبع على ورق مصقول، وامتلأ بالصور النادرة، على ورق كوشيه … فإن أحدًا لم يدرِ به. وقد كان هذا مقصودًا! إن الذين اختاروا «اسم» صالح جودت ليضعوه على الغلاف، وتعمَّدوا لأول مرة أن يسجل الكتاب بصوته على أشرطة، كانوا يضربون عصفورين بحجر واحد. العصفور الأول هو الاستجابة لرغبة أمير

الكويت في تخليد الرئيس الراحل ومساهمته الشخصية في ذلك. والعصفور الآخَر هو ثقتهم بلا حدود في عداء صالح جودت لعبد الناصر، فأعدوا الكتاب وسجلوه بصوته ودفعوا له الشيك الهدية. ولم يكُن مهم لديهم توزيع الكتاب على الإطلاق، وإنما كانت «الوثيقة» هي كل ما يعنيهم من الأمر كله.

ووقع صالح جودت في المصيدة، فأضاف إلى المعلومات الأرشيفية التي وُضعت تحت تصرُّفه بعضَ العبارات الإنشائية الحماسية. وكان الصوت الذي كلَّم مديحة يسري في البداية واضحًا غاية الوضوح حين تسلَّمَت المخطوط مطبوعًا بالآلة الكاتبة ممهورًا بتوقيع صالح جودت: الأصل لدينا ولكن احتفظي بهذه النسخة أيضًا وأعيديها بعد الطبع فورًا. وجلس صالح جودت أمام الميكروفون ساعات طويلة، وهو المذيع القديم، ليسجِّل على نفسه شهادة حية إلى جانب عبد الناصر.

ودارت الأيام بسرعة مذهلة ... وبعد أقل من ستة أشهر كانت مصر تشهد أول نقطة تحوُّل حاسمة في تاريخها التالي لوفاة الرئيس.

كانت حركة ١٥ مايو (أيار) ١٩٧١م. وقد كان يومًا «شخصيًّا» في حياة صالح جودت، يومًا شخصيًّا إلى أقصى الحدود.

كان حماس صالح جودت لِمَا جرى في ذلك اليوم أكثر عنفًا وتوتُّرًا من حماس الآخرين. كان حماسًا مشوبًا بالحقد والثأر والخوف مرة واحدة. نفاقه الماضي لكي يعيش فضحته أحداث الساعات الأخيرة من ١٥ مايو ١٩٧١م. لم يكُن صالح جودت منافقًا حين هبَّ مذعورًا من نومه يؤيِّد ما جرى، وإنما كان مشوقًا إلى هذا اليوم غاية الشوق، لولا «سره الخفي» الذي لا يعرفه أحد! القصيدة يعرفها الجميع ويضمونها إلى قائمة أشعاره في الملوك والأمراء والرؤساء السابقين واللاحقين، أما الكتاب والأشرطة فلم يعرف أمرهما إلا الأقلون.

واشتبكت أسلاك التليفون من جديد بين القاهرة والكويت. كانت الأصوات جديدة، ولكن الأجهزة هي هي. وكانت مديحة يسري على الطرف الآخَر تقول: ليست لديَّ نسخة واحدة من الكتاب ولا من الأشرطة.

يبدو أن جهازًا آخَر سبق الفرسان الجدد في الاستيلاء على بقية النسخ والتسجيلات. ولم يعُد ممكنًا تنفيذ حكم الإعدام في الورق المطبوع أو الأشرطة، رغم أنها لم توزع على الجمهور العام: وأُسقط في يد صالح جودت والذين وراءه.

حتى كان يوم ...

فتح فيه صالح جودت النار على عبد الناصر والناصرية، قبل علي أمين ومصطفى أمين والباشوات السابقين والحاليين، قبل إحسان عبد القدوس وموسى صبري وسابا حبشي ووحيد رأفت، فتح صالح جودت النار. قال ببساطة شديدة إن ثورة ٢٣ يوليو لم تتمتع بالشرعية طيلة العشرين سنة الماضية، نظامها لم يكُن شرعيًّا، وكذلك إجراءاتها وقوانينها ودساتيرها وتشريعاتها. الشرعية تبدأ من ١٥ مايو (أيار) ١٩٧١م. وفي عدد «المصور» الصادر بتاريخ ٢١ يونيو (حزيران) ١٩٧٤م وتحت عنوان «هل تبقى الثورة إلى الأبد؟» أجاب بالنفي معلِّقًا على زيارة الرئيس الأمريكي نيكسون بأنها كانت «استفتاء للشعب في رغيف عيشه وفي لون رغيف عيشه، في النظام الاقتصادي الذي عاشه منذ قيام الثورة، في الأيديولوجية التي فُرضت عليه، والأيديولوجية التي يتمنَّاها لنفسه». ويتساءل في عدد «المصور» بتاريخ ٥ يوليو (تموز) ١٩٧٤م عن كلمة اليسار «من أين جاءتنا هذه الكلمة التي روَّج له المروِّجون خلال السنوات العشرين الماضية؟» وفي عدد ١٦ أغسطس (آب) ١٩٧٤م من نفس المجلة يرى في ورقة تطوير الاتحاد الاشتراكي «جسرًا للعبور من نظام إلى نظام آخَر يحقِّق مبادئ الديمقراطية الحقة كما أرسَتْها الثورة الفرنسية» لأن الاتحاد الاشتراكي بوضعه القديم تمتد جذوره إلى «نظم الكتلة الشرقية»! ويرى في عدد ١٤ يونيو (حزيران) ١٩٧٤م أن «مصر منذ حرب أكتوبر قد قرَّرَت أن تكون مصر ... مصر المصرية الخالصة». وفي العدد ٣١ مايو (أيار) ١٩٧٤م وما قبله وما بعده يحكي سيلًا من القصص والأساطير والكوارث التي لحقت بعلية القوم (لا بالطلبة والعمال والفلاحين والمثقفين) ويطالب بلجنة تتعقَّب الذين تولوا الأمور «منذ سنة ١٩٥٢م إلى اليوم». ويذكر في عدد ١٩ يوليو (تموز) ١٩٧٤م أن المقارنة بين السوفيات والغرب ظالمة للغرب «لأن الحفار الذي نستورده من الاتحاد السوفييتي يعيش سنة واحدة، بينما الحفار الذي نستورده من إنجلترا يعيش أكثر من عشر سنوات». وفي عدد ١٣ سبتمبر (أيلول) ١٩٧٤م يخاطب «جلالة الملك» حسين مؤكِّدًا «أقولها بكل تأدُّب، لأن الأيام السود علَّمَتنا أن مخاطبة الملوك والرؤساء بالكلمة الخشِنة كانت من أسباب مدلهمة سنة ١٩٦٧م ... وعلَّمَتنا أن الكلمة الحلوة هي التي تقرِّب الجميع إلى مثل النصر الذي حقَّقْناه سنة ١٩٧٣م».

ويحتاج الأمر إلى مجلدات كاملة للاستشهاد بأقوال صالح جودت المأثورة في ثورة ٢٣ يوليو وإنجازات ما بعد ١٥ مايو (أيار) ١٩٧١م. ذلك أن الرجل — قبل غيره — ارتاد الهجوم على عبد الناصر من موقع الثورة المضادة، ولأن الرجل — أكثر من غيره — ظلَّ أمينًا لهذه القضية وحدها منذ ذلك التاريخ إلى الآن.

وليس مهمًّا أن صالح جودت قد تسلَّق أعلى المناصب في ظِل عبد الناصر، وأنه كان من أدوات السلطة البارزة في الحياة الثقافية، وأنه رغم وجهه القبيح كان مقبولًا من المستويات السياسية والتنظيمية والرسمية كافة، وأنه جنى أرباحًا هائلة من هذا كله.

ليس مهمًّا القول الأخلاقي بأنه تنكر لا سيادة! إنها في خاتمة المطاف «عبرة سياسية» لأية سلطة تنشد الثورة بركائز فكرية للثورة المضادة! ليس مهمًّا أن ثورة يوليو لم تضر صالح جودت في رزقه أو فكره لحظة واحدة حتى يحقد عليها كل هذا الحقد، لأن كتابه المسجَّل يرى أنها أعظم الثورات وقائدها أخلد الرجال. ليس المهم أيضًا اكتشاف «النفاق» في أمثال هذه النماذج التي تحيا حياتها صاحبة الجلالة في كل العهود وتأكل فوق كل الموائد.

وإنما المهم قبل ذلك كله وبعده: لعبة الأجهزة! إن الكتاب المحكوم بالإعدام لم يكُن تعبيرًا حقيقيًّا عن فكر صالح جودت. وإذا كان أحد الأجهزة قد استطاع الحصول على «وثيقة مطبوعة مسجَّلة صوتيًّا» دفاعًا عن عبد الناصر، فإن هذا لم يمنع صالح جودت من كتابة عشرات المقالات ضد عبد الناصر. وهو على استعداد لتسجيل هذه المقالات على أشرطة وتعبئتها في أسطوانات، وحين هدَّدَه شاب كويتي متحمِّس لعبد الناصر هو أحمد أبو مطر بالكتاب والشريطَين، قال لأصدقائه في ركن سميراميس بالقاهرة وهو يقلب مجلة «الرائد» الكويتية: لقد اعترفت ميمي شكيب أمام النيابة والمحكمة أنها تدير بيتًا للدعارة، ومع ذلك برئت ساحتها من الجرم المشهود. التسجيلات ليست قرينة ولا دليلًا.

علَّق توفيق الحكيم وهو ينظر في وجه ثروت أباظة بعينٍ، ووجه إبراهيم الورداني بعين أخرى: ولا الكتاب يصلح دليلًا.

والحكيم كما نعلم رجل قانون. ولكنه أيضًا يحب الشعر. ولعلَّ الفرق بين كتاب صالح جودت عن عبد الناصر ومقالاته ضد الناصرية، هي عند صاحب نظرية «التعادلية» كالفرق بين قصيدة صالح جودت القائلة:

بارك «الفاروق» فيكم قلمًا لم تحرِّكه إلى الزيف يَميني

وقد ظهر البيت هكذا لأول مرة، ولكنه حين أعاد طبع «ليالي الهرم» قال:

بارك «الرحمن» فيكم قلمًا لم تحرِّكه إلى الزيف يَميني

وقصيدته الأخرى — تأملوا الفرق — التي يقول فيها:

لم يزَل يحمل جرحًا من فلسطين الأبيَّة
قُل لهم أنَّا استجبنا لـنـداء الـنـاصـريَّـة

أم إن توفيق الحكيم لا يحب الشعر، ويحب أن يقارن — بدهاء — بين كتاب صالح جودت وكتابه «عودة الوعي»؟ إنهما الكتابان الغريمان، أم إن الجهات التي أصدرتهما واحدة وإنْ تغيرت العناوين والأسماء والشيكات؟

التاريخ وحده سيجيب. ولكن الغاية ووسائلها تبقى واحدة: حين مات عبد الناصر كتب أحد خصومه ويُدعى صالح جودت كتابًا عن «قصة كفاح البطل»، وبعد أربع سنوات من رحيله كتب أحد مؤيديه ويُدعى توفيق الحكيم كتابًا ضده. الكتابان صدَرَا في بيروت والكويت: الأول نشرَته وسجَّلَته مديحة يسري، والآخَر نشره محمد المعلم في دار الشروق. والكتابان — أخيرًا — لا يحتاجان إلى «تأليف» وإمعان للفكر، وإنما هما من قبيل التسجيل الوثائقي في لعبة الأجهزة.

... وسقط آخر العمالقة!

خبر صغير تناقلته وكالات الأنباء مساء ٢٤ / ٩ / ١٩٧٤م هو أن جلالة الحسن الثاني ملِك المغرب قد أنعم على الشاعر العراقي محمد مهدي الجواهري بفيلَّا خاصة في طنجة، وفتح له حسابًا في أي بنك يختاره بما قيمته مائة دينار يوميًّا.

كل ما استطاع أعداء جواهري أن يقولوه هو أن المكافأة الملكية التي تلت «وسام الكفاية الفكرية» — وقد ناله الشاعر منذ شهور قليلة — أكبر من حجم القصيدة التي كتبها في مائة بيت مديحًا لمآثِر الملِك المغربي ... ذلك أن البيت الواحد منها لا يساوي دينارًا كل أربع وعشرين ساعة! وأقصى ما استطاع أعداء الجواهري أن يفعلوه هو أنهم عادوا بذاكرتهم أو ذاكرة آبائهم إلى الوراء ليعلِّقوا بأن الرجل بدأ حياته شاعرًا للبلاط وأنهاها شاعرًا للبلاط، وما بين البداية والنهاية مدح جميع الحكام بغير استثناء، فما الجديد، وأين المفاجأة؟!

ولكن أعداء الجواهري ليسوا هم «كل» جمهور الشاعر الكبير، ولا هم «التاريخ». إن الشعور العميق بالأسف والحزن، هو الشعور الأقوى والأغلب عند الذين كانوا يطمحون لشاعرهم في السراء والضراء نهاية مغايرة. فرغم الانعطافات المأساوية في حياة الجواهري وشعره كافة، وقفَ الرجل في لحظات مصيرية حاسمة إلى جانب الشعب والثورة. كذلك كانت أهمية الجواهري إنه بمفرده ظلَّ الاستثناء الشعري الوحيد الذي يجمع بين الكلاسيكية ونبض العصر والأمة. من هنا ينبغي أن يكون شعورنا بالأسف، لا بالتشفي، والحزن لا الشماتة ... فالجواهري، بعد أن يذهب الشخص، يبقى الشعر، جزءًا لا ينفصل عن تراثنا بكل سلبياته قبل إيجابياته؛ أي إن عاره سيلحق بنا في خاتمة المطاف لأنه منا، ومجده أيضًا لنا.

ولكن «العبرة» أيضًا وأيضًا تظلُّ قائمة، لا تلغيها أية مشاعر أو عواطف وانفعالات. وقد أتاحت لي سلسلة من المصادفات أن أستخلص هذه العبرة في حياة الجواهري ومأساته، منذ كنت في أبريل (نيسان) ١٩٦٩م في بغداد عضوًا بالوفد المصري لمؤتمر الأدباء العرب … وكان الجواهري قادمًا من براغ لأول مرة بعد غيبة سنوات طويلة، وعلى إثر برقية من وزير الداخلية العراقي يطلب فيها «أن يعود شاعر العرب الكبير إلى وطنه لأنه بحاجة إليه!» وفي العراق — أقول، لا بغداد وحدها — شاهدتُ بعيني محبة الجماهير لشاعرهم الغائب. ولمستُ الموقف الحقيقي للسلطة عن قرب، وأشهد بكل أمانة الضمير والإحساس بالمسئولية، إن الحكم العراقي الراهن أعطى الجواهري ما لم يُعطِه أيُّ نظام عربي آخَر لشاعر أو أديب في حياته. وهو عطاء ظلَّ الجواهري يترنَّم به كالمجنون وهو يسرد عليَّ تفاصيله حين التقيتُ به بعد أشهر قلائل في ديسمبر (كانون الأول) ١٩٦٩م، بالتحديد في براغ. هذا على الرغم من أن الحكم العراقي كان يعرف الجواهري جيدًا، يعرف أن رصيده وحده هو الذي يشفع له وليس مستقبله، يعرف أيضًا أنه لن يطيق «استقرارًا» من أي نوع كان. رغم ذلك أعطاه أسباب الاستقرار المادي والمعنوي كافة. وبعد أيام قليلة من انتهاء المؤتمر الذي ألقى فيه الجواهري قصيدة دون المتوسط، سافر الرجل إلى براغ. قال إنه مضطر للذهاب لتصفية «متعلقاته» هناك.

وقد وفَّر لي صديقي المناضل مهدي الحافظ السكرتير العام لاتحاد الطلبة العالَمي آنذاك عدة جلسات مع الجواهري، سجلتها فيما بعد بكتابي «مذكرات ثقافة تحتضر». وفهمت من الشاعر أنه على الرغم من أزمة الإسكان الحادة في براغ، فإن الحكومة التشيكية قد وهبته تقريبًا منزلًا جميلًا. وهو الآن بالغ الحرج، لأن الدوائر المختصة قد علمت بأن ظروفه مع بغداد قد اختلفت وأنه مدعو للعودة إلى وطنه، ومن ثَم عليه أن يسلِّم المنزل. سألت الجواهري بدهشة وبراءة حقيقية: لقد عدت فعلًا للوطن، وقد جئت لتصفي بقايا وجودك هنا، فما حاجتك إلى المنزل؟ أجابني بدهشة مماثلة ولكن دون براءة: المنزل؟ وبراغ؟ والراتب؟ والأولاد؟ لن أترك تشيكوسلوفاكيا بأية حال!

ولم أسجِّل ذلك في حديثي المنشور معه.

وبعد أقل من عامَين بقليل …

وبعد منتصف إحدى ليالي سبتمبر (أيلول) ١٩٧١م كان التليفون في منزلي يدق دقًّا متواصلًا … غالبت النوم ورفعت السماعة، وإذا بالطرف الآخَر على الخط صوت الجواهري! سألته: هل تتكلم من براغ؟ أجابني: كلا! أنا هنا في القاهرة، وصلت توًّا من

المطار، تجدني في فندق النيل. هنَّأتُه بسلامة الوصول وأنا أكاد لا أعي شيئًا ممَّا قال ولم أفهم لماذا جاء ولا كيف، وقلت له إن الوقت متأخر وإنني سأمرُّ عليه في الصباح الباكر قبل ذهابي إلى عملي في «الأهرام». ولكني فوجئت بصوته يعلو ونبرته تنفعل وهو يصر على نزولي فورًا.

بدأت أصحو وأنا أفكِّر. ما الحكاية؟ الجواهري في القاهرة؟ لقد دعاه لطفي الخولي منذ عامين باسم «الطليعة»، وكان اسمه مدرجًا في القوائم الممنوعة من دخول مصر، ولكن الوساطة أفادت ووجهت إليه الدعوة رسميًّا. تذكرت أنني سألته في براغ، لماذا لم يلبِّ دعوة «الأهرام» و«الطليعة» فأجابني بما لم يخطر على بالي حينذاك مطلقًا: ولماذا لا يدعوني يوسف السباعي؟ لطفي والجماعة إخوان. لكن السباعي هو المسئول عن الثقافة. أريد دعوة رسمية لا دعوة أخرى! أريد لمصر أن تدعوني بعد أن حُرمتُ منها عشرين عامًا، لا مجلة «الطليعة»!

ولم أنقل هذا الكلام يومها إلى لطفي الخولي. وعبثًا حاولت إقناعه أن جمعية الأدباء التي يرأسها يوسف السباعي ليست أكثر رسمية من «الأهرام». وإن «الطليعة» تمثِّل مصر أكثر مما تمثلها جمعية الأدباء. وأن يوسف السباعي عنوان كبير للرجعية الأدبية وهو شاعر ثوري. وأن عليه ألا يتصور الأدباء في جمعية الأدباء إذا كان يريد أن يقابلهم، فهم في كل مكان إلا في جمعية الأدباء. وأن وأن ... إلى أن بُح صوتي وتلاشت قواي على الحوار، فقد رأيتُه مصمِّمًا على تلقِّي دعوة رسمية من «الحكومة» وبالذات من يوسف السباعي!

تذكرت ذلك كله وأنا في طريقي إلى فندق النيل القريب نوعًا من منزلي والساعة تشير إلى الثانية صباحًا. وفي غمرة اللقاء الحار نسيت كل شيء وعانقته بمحبة حقيقية واصطحبته إلى شوارع القاهرة ومقاهيها وأحيائها الشعبية، خصوصًا حي الحسين ومقهى الفيشاوي. قابلنا ليلتها أمل دنقل وبعض الأدباء الشباب الذين التفُّوا من حوله في مودة صادقة. كانت أشعاره ضد الطغاة منقوشة في القلوب وفوق جدران الزنازين بالسجون والمعتقلات المصرية. وحين عُدت أول عام ١٩٧٠م من أوروبا إلى القاهرة سألني الدكتور إسماعيل صبري عبد الله رئيس التحرير بدار المعارف وقتها ما إذا كان من الممكن الاتفاق مع الجواهري على نشر أعماله الكاملة.

قلت له لست أدري، فقد صدرت لهذه الأعمال طبعات مختلفة، منها طبعتان حديثتان في بيروت، ولا أعرف نصيبهما من الكمال. ولكن أحد الناشرين يتهم الشاعر بأنه باعَ نفس

«الأعمال الكاملة» لناشر آخَر في الوقت ذاته. وكان الجواهري في طريقه إلى ناشر ثالث اكتشف اللعبة في الوقت المناسب. على أية حال وصلت الطبعتان أسواق القاهرة وبِيعتا كلتاهما. وكان الشباب أكثر من غيرهم إقبالًا على شعره، رغم انتمائه الفني إلى عصور مضت. كانت حركة الطلاب والمثقفين عمومًا منذ عام ١٩٦٨م قد بعثت الشعر «الثوري» إلى ساحة الوجود النضالي الفاعل، وحين رأى الأدباء الجدد الشاعر العجوز بينهم بلحمه ودمه، فرحوا به وأحاطوه بكل رعاية وحب. حتى عندما سكر القصَّاص يحيى الطاهر عبد الله في «الأتيليه» نادى الكتَّاب والفنانين وداعب الجواهري مداعبة خشِنة، سرعان ما اعتذر، وعاد الجو إلى الهدوء.

لم أكُن قد سألت الجواهري عن سبب حضوره المفاجئ حين سمعته يروي للشباب ليلة وصوله برفقتي أنه جاء ليشترك في المهرجان الأول لرثاء جمال عبد الناصر بعد مرور عام من رحيله، بدعوة رسمية من يوسف السباعي وجمعية الأدباء! لم يشعر الرجل طبعًا بوقع كلماته على آذان الشباب، وإنما كان يشعر فحسب بوقع حضوره بينهم. ولأن هذا الحضور كان باعثًا لسرورهم فقد اكتفى بذلك. كانت جمعية الأدباء قررت الاشتراك في الذكرى الأولى للرئيس الراحل بعَقْد أمسية في القاعة الكبرى للاتحاد الاشتراكي تُحييها مجموعة من الشعراء العرب يتقدَّمهم صالح جودت.

وهنا يجب أن أتوقَّف قليلًا ... فقد تضافرت مجموعة من الظروف التي أدَّت في النهاية إلى وصول الجواهري مطار القاهرة. كان سفير مصر في براغ مجدي حسنين يحب الشاعر ويرغب في إزالة الجفوة غير المبرَّرة بينه وبين مصر. وهي جفوة افتعلتها أجهزة الأمن المصرية عام ١٩٥٩م حين وقع الخلاف بين الحكم في العراق والحكم المصري ووضعت أسماء الكثيرين من المناضلين العرب في قوائم الممنوعين. وكان من بينهم اسم الجواهري. ولكن مجدي حسنين كان يرغب وقد تغيَّرَت ظروف عديدة في أن يقوم الشاعر العراقي بزيارة مصر. وأبلغَ هذه الرغبة إلى يوسف السباعي الذي نام طويلًا، رغم كثرة المناسبات، واستيقظ فجأة ذات يوم. كان «اليوم» مشحونًا بالعلاقات المتوترة بين القاهرة وبغداد. وكان «اليوم» ذكرى عبد الناصر الذي مُنع الجواهري في عهده من زيارة مصر! هكذا أقبلت المناسبة وكأنها من «القدر» فقام السباعي على الفور بتلبية رغبة السفير المصري في تشيكوسلوفاكيا وكان على وشك مغادرتها، ودعا شاعر «العراق» الكبير للاشتراك بإحدى قصائده، وهمس لي الجواهري بحذر شديد كأنما يُبيح لي وحدي بسر خطير: هل تعرف مَن الذي منعني في السابق من دخول القاهرة؟ ولم ينتظر بل أجاب على الفور: إنه علي صبري!

وضحكتُ في داخلي بمرارة، فقد باح لي بهذا «السر» بعد أيام مليئة لحد التخمة بالأحداث من حضوره. لم ينتبه الجواهري إلى أن أحدًا — ولو هلفوتًا — لم يستقبله في المطار. ولم ينتبه مرة أخرى إلى أن «الأحد» الذي جاءه في التاسعة صباحًا موفدًا من يوسف السباعي ضابط سابق يُدعى عصام الحيني! كانت الخامسة والنصف صباحًا حين عدتُ إلى منزلي وكانت الثامنة والنصف حين عدت إليه. وابتهج عصام الحيني عندما رآني كأني خلَّصتُه من ورطة، معتذرًا عن يوسف بك لمشغولياته العديدة ولأن الطائرة تخلَّفَت عن موعدها، ومُلمحًا إلى أن «غالي بك فيه البركة ... مش كده يا فندم؟»

وذهلت! لم أفهم شيئًا ولم أدرِ بماذا أجيب. ولأن الشعراء عمومًا نرجسيون وفي مقدمتهم الجواهري، فقد وجدتني أخدش أوهامه وأنا أوجِّه الحديث إلى الضابط السابق اللاحق بمعية يوسف السباعي، قائلًا: لقد استقبل هيكل سارتر عام ١٩٦٧م على سلم الطائرة، وضاقت قاعة الشرف بالمثقفين الذين جاءوا لاستقباله. وكانت «الطليعة» هي التي دعت جارودي ومكسيم رودنسون فكانت زيارتهما موضع الحفاوة الشاملة والترحيب العملي الكامل. فهل تقلُّ جمعية الأدباء أهمية عن إحدى المجلات؟ كان كلامي في الحقيقة موجَّهًا إلى الجواهري. ولكني استأنفت الحديث مع الحيني: «إنني مُفاجَأ بزيارة الجواهري ولو أنكم قلتم لي ولغيري لاستقبلناه بأكثر مما استقبلنا المفكرين الفرنسيين: وعلى أية حال فأنا أرافقه كصديق، فليست لي أية صفة رسمية.» واكتفى الضابط المدني الأنيق بابتسامة جامدة، وهو يعلِّق في برود مثير «البَرَكة فيك يا فندم». ثم استأذن معتذرًا بموعد عمله مشيرًا إلى أن دار الأدباء قريبة من الفندق واعدًا بأنه سيحضر في المساء.

وعلى الفور أخذتُ الجواهري من يده إلى «الأهرام».

لم يكُن لطفي الخولي قد وصل مكتبه، فقمت بتعريفه إلى جميع الزملاء في «الطليعة». لم يكُن بالطبع يحتاج إلى تعريف. ولكنهم حين رأوا الجواهري بينهم شخصيًّا أحاطوه بكل خلجات أعصابهم ومشاعرهم الفياضة بالحب. وتلفتت للطفي ولويس عوض. وحضر الناقد الكبير في البداية فرحَّب بالشاعر الكبير ترحيبًا حارًّا قائلًا له: أنت آخِر العمالقة. والتقطَ أحمد بهجت هذا التعبير فكتب مقالًا في «الأهرام» هو خلاصة حديث مع الشاعر. وأقبل معين بسيسو، ومحمود درويش، ويوسف إدريس على التوالي، فأخذوا يترنمون بشعره القديم وذكرياتهم الشخصية مع هذا الشعر.

وكان لطفي الخولي في مكتبه منذ ساعة بانتظارنا ونحن لا ندري فذهبنا إليه. وبعد الأحضان والقبلات، قال له لطفي: لن أعاتبك على عدم تلبيتك لدعوة «الطليعة»، ولكن بعد

انتهاء دعوة جمعية الأدباء فإننا نستبقيك أيامًا أخرى باسم «الطليعة». ووافق الجواهري شاكرًا. وطلب مني لطفي أن أكون في تصرُّف شاعرنا فعلَّق الرجل: إنه ابني.

وشرعت الأقلام الوطنية والتقدمية ترحِّب بمَقدَمه وتعزِّف به أوسع الجماهير التي حُرمت كلماته النارية زمنًا طويلًا، وتطلب إليه اللقاء معها ومع الناس التي تحبه. ولكن مساء ذلك اليوم نفسه شهد نَقْلة جديدة في السيناريو … فقد وصل عصام الحيني إلى الفندق في المساء، وراح يتكلم عن ضرورة انتقال الشاعر الكبير إلى «شبرد» إذا لم يكُن مرتاحًا لهلتون. ثم اصطحبنا إلى جمعية الأدباء. وكان بالانتظار يوسف السباعي وصالح جودت وإبراهيم الورداني وبقية الحاشية. بادره صالح جودت «أهلًا أستاذنا» وأخذه الورداني بالحضن، أما يوسف السباعي فكان دمثًا وناعمًا ومبتسمًا في هدوء كعادته. وبدأت الدردشة — من جانب صالح جودت — بالهجوم على الشعر الحر، فأيده الجواهري مستثنيًا عبد الرحمن الشرقاوي — وكان موجودًا — والسياب وصلاح عبد الصبور والفيتوري. وأحسست من مناخ «المجاملة» أن وجودي سوف يسبِّب الحرج، فاستأذنت معتذرًا بارتباط سابق.

لم تمضِ ساعتان أو ثلاث حين اتصل بي الجواهري تليفونيًّا، من جمعية الأدباء، يطلب مني أن ألحق به؛ لأنه لا يعرف الطريق إلى الفندق. وقام صالح جودت يودِّعه قائلًا: «أنت في بيتك يا أبو فرات». ولم أتصوَّر لحظة واحدة أن هذه الجملة نهاية حديث وبداية حدث، وليست لها علاقة بالوداع التقليدي أو الترحيب المصري المعتاد … حتى قال لي الجواهري في الطريق القصير جدًّا من الجمعية إلى الفندق: اسمع، أنا هنا لست عدوًّا لأحد! لم أفهم. شرحَ: على «الإخوان» أن يفهموا أنني هنا ضيف فقط، أو قُل إنني في بلدي … وقبل أن أسأله عمَّن يقصد بالإخوان استطرد: وعلى أية حال فأنا لست شيوعيًّا ولم أكُن في يوم من الأيام. الإخوان بيحبوني، على عيني ورأسي. والجماعة كمان بيحبوني. وقبل أن أسأله عمَّن يقصد بالجماعة أضاف: صالح جودت وجماعته طلبوا مني شعر لمجلة الهلال. وبيحبوني صحيح.

لم يترك لي أن أعلِّق …

ولم تترك لي كلماته أن أنام … ظللتُ ساهرًا أحدِّق في الفراغ وأفكر، ماذا يمكن أن يكون قد حدث بالضبط؟ وأكلني الندم على أنني تركته هاتين الساعتين. ولكني ما إن استيقظت في الصباح حتى دعاني تليفونه إلى طعام الإفطار. وقبل أن أقول له «صباح الخير» التفت إليَّ بعينَين زائغتَين وهو قادم من آخِر القاعة كمَن قرَّر أمرًا خطيرًا،

وقال: اسمع. سوف أبقى هنا في مصر، لا شهرًا ولا شهرَين، وإنما إلى الأبد. إنها حبي الأول والأخير. أبلِغ الإخوان — لطفي أقصد — بهذا القرار حتى يتصرفوا.

وبُهتُّ! أُصبت بالخرس تمامًا. وحين بدَت بادرة حركة على شفتي ولم تفته «الصاعقة» التي ألَّت بي، قال: طبعًا، هذا سر، سر خطير أقوله لك أنت وحدك، أنت موضع ثقتي، فلربما لا تكون الظروف عندكم مهيَّأة لبقائي، فإني أرحل دون أن يعرف أحد شيئًا.

ولم أُجِب. ذهبتُ فورًا إلى لطفي الخولي.

سردت عليه ما سمعت. نظر إليَّ مبتسمًا وهو يسألني: هل تعرف الجواهري جيدًا؟ إنه يتخذ هذا القرار اليوم ويتخذ نقيضه غدًا. قُل له أهلًا به في أي وقت وفي كل وقت وليبقَ في مصر ما شاء له البقاء؛ شهرًا شهرين. إنه يحل في قلوبنا قبل بيوتنا. ولكننا لا نتحمل مسئولية قراره الذي تُحدِّثني عنه، لأنه هو نفسه لا يعرف مسئولية الموقف. إنه رجل مزاجي غير مضمون.

وفي المساء توجَّهتُ إلى الجواهري لآخذه إلى قاعة اللجنة المركزية بالمقر الرئيسي للاتحاد الاشتراكي. وكانت المنصة تشهد منظرًا غريبًا: فغالبية الشعراء ممَّن يكرهون جمال عبد الناصر إن لم يكُن بالشفاه فبالقلب، وإن لم يكُن بالشعر فبالنثر، وإن لم يكُن بالعلَن فبالسر. أما الشاعر الذي أحبَّ عبد الناصر دون أجر — أحمد عبد المعطي حجازي — فقد أبعدوه عن الأمسية. لقد حضر، ولكنه لن يتكلم. هكذا كان الجو مشحونًا منذ البداية. وسقط جميع الشعراء، سقطوا في مذبحة الكذب. أحمد رامي وصالح جودت وغيرهما ممَّن قضوا العمر ينتحبون على الماضي الملكي، يمدحون عبد الناصر بلا تحفُّظ، جمعوا تراث أسلافهم كله في مديح الولاة والسلاطين والملوك، وصبُّوه على رأس عبد الناصر. ما عداه. ما عدا «أبو فرات»، فقد فاجأ القاعة بأن الراحل كان «عظيم المجد والأخطاء» وراح يعدِّد نواحي المجد ومكامن الخطأ، كما غازل مصر وشعبها غزلًا شديدًا، بالإضافة إلى براعته التمثيلية في إلقاء الشعر، فاهتزت القاعة مرات عدة اهتزازًا عنيفًا.

كانت ليلة الجواهري بلا منازع، وكادت تمرُّ بسلام، لولا أن أحمد عبد المعطي حجازي كان فارسًا شجاعًا فاستوقف صالح جودت والجموع في طريقها إلى الباب، وقال له كل ما يمكن أن يقال في شاعر الملوك والبغايا أمام الناس جميعًا. وقد يبدو الموقف بأكمله استفتاءً جماهيريًّا ساحقًا نجح فيه الشاعر الممنوع من الكلام وسقط فيه الشاعر الكذاب.

كان من الطبيعي أن نذهب مع حجازي إلى منزله أو إلى أي مكان، وإذا بأبي فرات يغمزني في ذراعي ويتجه بي إلى الخارج ويطلب تاكسيًا، وإلى الفندق. هرب من الانحياز إلى أحد الطرفين علنًا، وأراد أن يسمع مني «الأخبار». كانت بانتظاره رسالة مُغلَقة. كانت تحوي خمسين جنيهًا مصريًّا وكلمة صغيرة من مجلة الهلال بتوقيع صالح جودت، مكافأة له على قصيدتين قديمتين نشرتهما المجلة ترحيبًا بقدومه. وكانت «الأهرام» في اليوم السابق أخذت منه قصيدته الجديدة عن عبد الناصر فسألني كم سيدفعون إذا كانت مجلة صغيرة كالهلال دفعت كل هذا المبلغ على شيء قديم. ولم أُجِب. اكتفيتُ بالقول إن لويس عوض كتب مقدمة رائعة للقصيدة، وأنه لا ينبغي أن يقلق على نفاد نقوده لأن «الأهرام» ستتكفل بمصروفات إقامته. ودلفتُ إلى الموضوع الرئيسي وقلت له: الإخوان يرون أنك في بيتك ولا ضرورة مطلقًا لطلب إقامة دائمة، لأن تفسيرها الوحيد هو «اللجوء السياسي». وأنت أعرف بالجو الراهن بين القاهرة وبغداد.

كان لنا موقفنا المستقل من الصراع المصري العراقي في ذلك الوقت، وقد بدا ساخنًا قبل رحيل عبد الناصر بقليل. كنت مثلًا، أنا وحجازي ورجاء النقاش وصلاح عبد الصبور ولويس عوض أصدقاء للأستاذ أحمد فرج الله مستشار السفارة العراقية في القاهرة. شاب يعشق الفكر والأدب والثقافة، تعرَّفنا عليه حين كانت تصلنا عن طريقه دعوات من وزارة الإعلام لحضور مؤتمر أو مهرجان. وتوطَّدت بيننا وبينه صلة شخصية. وكان حظه مع القاهرة سيئًا، لأنه كان يحبها حبًّا خاصًّا، ولكنه عُيِّن بها في أحرج الأوقات، أي والعاصفة في أوجها وسماء العلاقات بين البلدين ملبَّدة بأكثر الغيوم كثافة. وعندما حوصرت السفارة العراقية ذات يوم أثناء التوتر العنيف بين العاصمتين، كنا نزوره هو وأسرته، وكان يزورنا في بيوتنا. وحين تأهَّب لمغادرة القاهرة كتب عنه لويس عوض في الصفحة الثقافية بـ «الأهرام» كلمة مؤثرة.

كذلك حدث أن زار مصر الأستاذ شفيق الكمالي — وزير الإعلام وقتئذٍ — وكانت تربطنا به ولا تزال علاقة حميمة. تعلَّم في القاهرة وعاش بين ناسها ودخل سجونها وأحبها كالعاشق من عمق أعماق القلب. ولكنه جاء أيضًا والعلاقات بين مصر والعراق في ذروة الأزمة. قلت للطفي الخولي إن شفيق الكمالي هنا، وهو صديق قبل أن يكون وزيرًا، أو قُل إنه رفيق نضال رغم الوزارة. وأحبُّ أن نحتفل به. واقترح رئيس تحرير «الطليعة» على الفور أن أدعوه إلى «الغداء». وفي الغرفة المخصصة لكبار الزوار بالطابق العلوي من «الأهرام» كان جميع أعضاء أسرة «الطليعة» يرحبون بضيفهم ويناقشونه

في السياسة. وظللتُ مع حجازي مرافقين لشفيق الكمالي حتى يوم وداعه للقاهرة، وقد منعنا من مصاحبته إلى المطار «حتى لا نتعرض لأي سوء ولو شبهة المؤاخذة» كما قال.

هكذا كان لدينا موقفنا المستقل من الصراع الدائر بين البلدين. عرضته بأمانة على مسامع الجواهري. ولكنه بعصبية قطع ورقة صغيرة بحجم الكف وكتب عليها عدة أسطر، وطلب مني توصيلها إلى لطفي الخولي وهو يزمجر غاضبًا: قل للإخوان إنني أستغرب ردهم. إنني واثق من أن الرئيس السادات يوافق على بقائي هنا! أريد أن أمضي بقية عمري في بلادكم. سوف أجمع شعري وأكتب مذكراتي.

وقمت برأس مزدحم. شتى الانفعالات ومختلف الأفكار تجمعت فجأة. ورحت في الصباح إلى لطفي وحكيت له كل شيء. قال لي مستغربًا كل هذه الحدة: إذا كان مصمِّمًا، فعليه أن يكتب طلبًا. وقاطعنا تليفون من الجواهري، لم يزِد مضمونه عن كلمات الأمس. التفتَ إليَّ لطفي وسألني عن «الورقة» التي أعطاني إياها أبو فرات. كنت قد نسيتها. ونزل هو إلى مكتب الأستاذ هيكل، ونزلت أنا إلى الدكتور لويس عوض. حكيت له كل شيء فنظر إليَّ متأمِّلًا وهو يقول: حتى إذا أصرَّ الجواهري على البقاء، وأهلًا به فمصر بيته، فليتم ذلك دون ضجيج إعلامي يُسيء إليه. للرجل مكانته وشيخوخته التي يجب احترامها. لا ينبغي بأية حال أن يكون لعبة أجهزة الإعلام ولا أن يكون طُعمًا لشباك الصيد السياسي.

ثم جَرَت الأحداث بسرعة مخيفة. في الخامسة من مساء هذا اليوم طلب مني لطفي الخولي أن أبلغ الجواهري بموعد مهم بعد ساعة في «الأهرام». وفي السادسة تمامًا كنت برفقة أبي فرأت في مكتب الأستاذ هيكل، وكان لطفي بانتظارنا أيضًا. دخل الجواهري حسب الموعد وبقيت خارجًا لبعض الوقت. ثم فاجأتني السكرتيرة بأنني مدعو للدخول. كان هيكل يتذاكر مع الشاعر أبياتًا من إحدى قصائده. وكان يهديه نسخة من المجلد الذي يضم التاريخ المصور لعبد الناصر، وقد أصدرته الأهرام في ذكراه الأولى. ثم التفتَ إليَّ هيكل قائلًا: لو تكرمت تذهب مع شاعرنا الكبير غدًا في تمام الساعة التاسعة إلى القصر الجمهوري في عابدين. بانتظاركما الوزير محمد أحمد.

وفي الصباح كانت تنتظر الجواهري مفاجأة لم تخطر له — ولي — على بال! حملت «الأهرام» في صدر صفحتها الأولى خبرًا يقول ما معناه إن السيد رئيس الجمهورية وافق على منح الشاعر العراقي الكبير محمد الجواهري حق الإقامة الدائمة في مصر. لم أتناول إفطاري وتوجهتُ فورًا إلى فندق شبرد. كاد الجواهري حين رآني أن يلطم الوجه وهو

يصرخ بكلمات مدغومة. فهمت منه أن الأمر كله كان يجب أن يظل سرًّا وبمنأًى عن شبهة اللجوء السياسي. اتصل به مراسل وكالة الأنباء العراقية يستفسر عن جلية الأمر. طلب منه الحضور إلى الفندق ظهرًا. وذهبت معه فورًا إلى موعده في القصر الجمهوري. كان محمد أحمد وزير الدولة لشئون الرئاسة بانتظارنا. تبادلا كلمات المجاملة، ثم التفت الوزير ناحيتي قائلًا: وخلال يومين على الأكثر فسوف ينتقل أستاذنا الجواهري من الفندق. ثم سأله عن الحي الذي يرغب في الإقامة به، فأجاب: جاردن سيتي. كان قد صاحب شابًّا كويتيًّا تعرف عليه في الفندق، يطلب العلم في المعهد العالي التجاري، وكان يسكن في هذا الحي وقد استضافه عدة مرات، فأعجبته السكنى هناك. وعند خروجنا من مكتب الوزير همس محمد أحمد في أذني بأن أتوجه إلى المكتب المجاور لأخذ مظروف مغلق باسم الجواهري وأخبره أن مرتبًا شهريًّا سيصله. واستمهلت أبا فرات لحظة في المشى وعدت إليه بالمظروف. فتحه أمامي في التاكسي. كان به مائة جنيه. سألني عما سيفعلون. قلت له سيعطونك مرتبًا شهريًّا ويبدو أن هذا المبلغ عاجل للطوارئ. وبدأ الاضطراب يغشى عينيه والتوتر ينساب إلى صوته. سألني كم في العادة يعطون لأمثاله؟ قلت له لا أعرف فهذه هي المرة الأولى في حياتي التي أشهد فيها شيئًا كهذا. سألني عن مرتب عبد الوهاب البياتي. قلت له إن البياتي يستعد للرحيل والعودة إلى بغداد. سألني عما إذا كان سيقابل الرئيس، وبدأت أفقد الصبر وأنفض يدي من المسألة برمتها، فأنا لا أعرف بالفعل شيئًا على الإطلاق. سألني عما إذا كان ممكنًا أن يُقيَّد عضوًا بالمجمع اللغوي أو المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب. قلت له: أبو فرات، يجب أن تفهم جيدًا أنني لستُ مسئولًا وأن الموضوع بأكمله يسير في مجرًى لا أعلم بدايته ولا نهايته. أنت صديقي، وأرجو أن تعفيني من أي إحساس بالمسئولية عن شيء لم أشارك في صنعه وإنما أتيح لي أن أشهد بالصدفة وحدها مظاهره الخارجية ... ولعلك تعلم أن عملي لا يسمح لي للأسف بوقت كافٍ لمصاحبتك رغم سروري لذلك. ولا بد لجمعية الأدباء التي تستضيفك رسميًّا حتى الآن أو رئاسة جمهورية التي ستستضيفك بعد ذلك من أن ترتِّب لك مرافقًا أو غير ذلك من أمور.

تجهم الجواهري في صمت. وكان مراسل وكالة الأنباء العراقية قد أزف موعده فاستأذنت. وفي «لا باس» رأيت الشاعرين عبد الوهاب البياتي، وحميد سعيد فلم أرَ لهما شيئًا مما أعرف، ولكن خبر «الأهرام» كانت صدمته على وجهيهما واضحة. في المساء كنا ثلاثة. أنا والبياتي وحميد سعيد في بهو شبرد مع الجواهري. راح البياتي يشرح له

بشجاعة، ولكن في أدب أن هذا القرار يتنافى مع أي منطق، وأن صياغة الخبر تعنى اللجوء السياسي بلا لف أو دوران، وأنه ليست هناك أية مشكلات بينه — أي الجواهري — وبين النظام في بغداد تبرِّر هذا السلوك، بل إن العكس هو الصحيح، فقد قامت السلطة من أجله بما لم تقُم به أية سلطة لأي شاعر، وإنه لا يجوز استخدامه وقودًا في حرب باردة. وكان حميد سعيد صامتًا طول الوقت. ولم يُجب الجواهري إلا بشتائم شخصية للبياتي، وأنه قد أفصح لمندوب الوكالة العراقية بكل شيء. ولم يكُن «كل شيء» هذا إلا أنه مُفاجَأ بخبر «الأهرام» كأي قارئ آخَر، وإن إقامته في مصر محدودة يريد بها أن يلغي اسمه من قوائم الممنوعين نهائيًّا، مع تحياته إلى العراق حكومةً وشعبًا.

... وانتقل الجواهري إلى شقة فاخرة بجاردن سيتي! وأرسل إلى السيدة زوجته في بغداد يشرح لها ضرورة بقائه في القاهرة. وبقيت مهمته أن ينفي أمام زواره فكرة اللجوء، وأنه سيُعيَّن قريبًا في المجلس الأعلى للفنون أو المجمع اللغوي، وأخذ ينتظر مقابلة الرئيس التي لم يعده بها أحد. وانتهى «المولد» في الصحف التي ظلَّت تطارده أسبوعًا كاملًا منذ نهايات سبتمبر (أيلول) إلى بدايات أكتوبر تشرين الأول. صمتت. ولم يعُد يتصل به أحد. التقدميون وجدوه يوثق ارتباطاته بأعدائهم، فابتعدوا متسائلين. الرجعيون كانوا يضحكون في أكمامهم شامتين. حوريات الجنة اللاتي تصورهن في خياله أنهن سيقعن في غرامه، تأخرن في الحضور، ثم تخلفن دون تحديد الأسباب.

وفجأة حضر ابنه الدكتور فلاح — أو نجاح، لست أذكر اسمه تمامًا — من بغداد؛ حيث يعمل طبيبًا. وأشهد أن هذا الشاب الوطني قد وبَّخ والده الشيخ أمامي توبيخًا حادًّا؛ تارة لأن الزوجة والأولاد لا يطيقون بعده، وقد آنَ الأوان ليستريح، وتارة أخرى لأن الناس البسطاء في العراق صُدموا بهذا القرار غير المبرَّر. وأكد له أن السلطة لم ولن تتخذ ضده أي شيء رغم المفاجأة. وعاد فلاح أو نجاح؟ بخُفَّي حُنين!

ولكن «الوحدة» راحت تنسج خيوط العنكبوت حول الرجل العجوز، لم يعُد يتصل به أحد، لا يوسف السباعي ولا صالح جودت ولا الآخرون. وإنما بقي اتصاله الوحيد مقطوعًا بمكتب اللاجئين السياسيين في رئاسة الجمهورية. ذلك أنه فوجئ آخِر الشهر بأن أحدًا لم يسأل، وأن عليه أن يدفع ثمن الكهرباء وصاحب المنزل الأرستقراطي يستفسر عمَّن سيدفع الإيجار. ويبدو أن البيروقراطية شاركت في صنع المهزلة، فقد احتاج الأمر لأن يطلب مني الجواهري أن أكلِّم هيكل أو لطفي في الموضوع. كلمت لطفي. وصله «أحدهم» يحمل مظروفًا جديدًا وكلمات اعتذار ووعد بأن المشكلة ستنتهي خلال أيام.

قبل انتهاء الشهر الثاني لم تكُن المشكلة قد انتهت! وأحسَّ الجواهري بالضياع. وبدوري لم أفهم شيئًا، أين بدأ الخيط، وكيف تعقَّد؟ هل بدأ في خلوته مع السباعي وجودت والورداني أم في مكتب هيكل، أم فيهما معًا؟ هل كانت «نزوة» مزاجية طارئة لقيت أذنًا صاغية واستغلالًا سياسيًّا موقوتًا، ثم «احترقت الورقة» فلم تعُد لها قيمة تستحق العناء؟ مَن الذي وعد، ومَن الذي أخلف؟ أم إن القصة بدأت في مكتب السباعي على نحوٍ ما، ثم بدأت من جديد في مكتب هيكل على نحو آخَر، فاختلفت البداية، وكانت النهاية واحدة؟

لا أدري، فإني لم أرَ ولم أسمع ولم أحضر «اللحظات الحاسمة» في الموضوع، وقد دارت في مكتبين مغلقين أحدهما بدار الأدباء والآخَر «الأهرام». كل ما أذريه أن شيئًا حدث يُشبه «الشهوة» في صعودها إلى الذروة وهبوطها إلى السفح، في علاقة الجواهري بالنظام المصري إبَّان شتاء ١٩٧١م. واللافت للنظر أن ما بين تأجج الشهوة من الجانبين وانطفائها المباغت، تم بسرعة مذهلة ولوقت بالِغ القصر.

ثم …

جاءني أبو فرات ذات صباح بقلب كسير يدعو للأسف والحزن، يسألني عن كيفية الحصول على بطاقة سفر إلى براغ. أدهشني أن بطاقة الدعوة كان للذهاب وحده وليست للإياب. اتصلت بيوسف السباعي فأمر عصام الحيني بتدبير التذكرة واستوقفني متسائلًا: لماذا؟ التقط الجواهري سماعة التليفون ليقول: سوف أنهي متعلقاتي في براغ وأعود. ورفع السماعة ثانيةً ليقول العبارة ذاتها لَمن يتصلون به من الرئاسة. ورفعها ثالثة ليردِّدها على مسامع لطفي الخولي.

وحين سألني لطفي في اليوم التالي مبتسمًا: ما الخبر؟ أجبته: صدق تقديرك للرجل. علَّق: وقد يهاجم مصر غدًا في بيروت. هذا هو الجواهري.

نعم، هذا هو الجواهري.

فحين جاءني معين بسيسو منذ قرابة شهرين يحمل لي صورته وهو يتقلد «وسام الكفاية الفكرية» في البلاط المغربي، لم أُفاجَأ لكني حزنت، كما لم أحزن عندما عرفت أن محمود حسن إسماعيل في مؤتمر الأدباء العرب بتونس أنشد قصيدة للرئيس بورقيبة وكانت «مذبحة المثقفين المصريين» لا تزال دامية.

حزنت وكتبت كيف يسمح الزمن للجواهري بأن يأخذ وسامًا، والشاعر المغربي المناضل عبد اللطيف اللعبي في زنزانته محكوم بعشر سنوات.

وحين تلقيتُ نبأ الهدية الملكية المغربية يوم ٢٤ سبتمبر (أيلول) الماضي، كان الحزن نفسه قد تبدَّد ... فهذا هو الجواهري إذَن «شخصية لم يكُن الشعر في حياتها أهم الأشياء، كما قد يتصور البعض، ولا كان الشعب، ولا كانت الثورة. وإنما كانت (حياة) الجواهري نفسها وما زالت أغلى الكنوز التي اقتناها و«عاشها» في هذه الدنيا» كما كتبتُ عنه منذ أسابيع.

ولكن، ماذا ينتفع الإنسان حقًّا، لو ربح العالَمَ كله وخسر نفسه؟

تلك هي «العبرة» التي يمكن أن تدلنا عليها مأساة الجواهري، بعد أن يذهب ... ويبقى الشعر.

مؤامرة ١٩٦٥م نجحت في ١٩٧٥م

حين خرجت من السجن في منتصف عام ١٩٦٢م وجدتني بالطبع مفصولًا من عملي الرسمي في التعليم، أما الصحافة التي كنت قد امتهنتها قبل ذلك التاريخ بقرابة ست سنوات، فإنها تلكَّأت في استقبالي بأسلوب مهذَّب يشي بأن «جهة ما» تعترض على كتاباتي أن ترى النور. وإذا كانت أسرتي قد استطاعت أن تتحمل فترة غيابي وراء الأسوار، فإن الوضع لم يعُد قابلًا للصبر بعد الخروج.

وصرت أكتب مقالًا شهريًّا لمجلة «الآداب» فكان الدكتور سهيل إدريس كريمًا معي مقدِّرًا للظرف الخاص الذي أمرُّ فيه. وكنت قد أنهيت قبل وأثناء وغداة الاعتقال كتابين، أحدهما عن المفكر الراحل سلامة موسى، والآخَر عن «أزمة الجنس في القصة العربية» فأخذت مكتبة الخانجي الكتاب الأول، ونشرت «دار الآداب» الكتاب الثاني. ثم فوجئت بمجلة «الكاتب»، وكان يرأس تحريرها في ذلك الوقت أحمد حمروش — ولم أكُن قد تعرَّفتُ به —، تتصل بي في شخص سكرتير تحريرها رأفت الخياط — ولم أكُن تعرفت به أيضًا — لتطلب مني أن أكتب فيها بصفة منتظمة. كذلك فقد دعاني الأساتذة يحيى حقي، وأنور المعداوي، وفؤاد دوارة للإسهام في تحرير «المجلة».

وهكذا فُتحت لي بعض الأذرع الحانية والقلوب الودودة في نهاية صيف ١٩٦٢م إلى أن دعاني الدكتور لويس عوض، ولطفي الخولي لتحرير عمود نقدي بصفحة الرأي في «الأهرام» فشعرت أن أزمتي الخاصة في سبيلها للانفراج وأنني سوف أستأنف عملي الصحفي الطبيعي في القريب. ذلك أن العمل في المجلات الثقافية الشهرية المتخصِّصة لم تكُن عملًا صحفيًّا بالمعنى الحقيقي للمهنة، وإنما كانت مأوًى من البطالة ومصدرًا للحد الأدنى من الرزق وفرصة لنشر بعض الفصول من مؤلفاتي التي يصعب نشرها في

الصحافة اليومية أو الأسبوعية. وظللتُ طيلة عام ١٩٦٣م أُراوِح بين العمود الأسبوعي في «الأهرام» والمقالين الشهريين في «الكاتب» و«المجلة». وقبيل عام ١٩٦٤م بقليل وكان الإفراج عن بقية المعتقلين قاب قوسين أو أدنى من التنفيذ، اتصل بي الدكتور محمد أحمد خلف الله الذي عُيِّن حديثًا مديرًا عامًّا للمجلات بوزارة الثقافة.

وكان اتصاله بي حدثًا في حياتي ... ذلك أنني قرأت للرجل كتابه الشجاع «الفن القصصي في القرآن الكريم»، وكان أستاذه الشيخ أمين الخولي قد حدَّثني عنه كثيرًا، خاصة حول «طرده» من الجامعة بعد الحصول على الدكتوراه، عقابًا على أفكاره الجريئة. اتصل بي خلف الله ليقول إن المطاف انتهى به إلى وزارة الثقافة، وأنهم ينوون إصدار عدة مجلات ثقافية أسبوعية وشهرية بالإضافة إلى المجلات القائمة، وأنه اختارني للتعاون معه، بل إنه يبلغني الموافقة على تعييني مديرًا لتحرير مجلة «الشعر» المُقترَح صدورها أول عام ١٩٦٤م إلى جانب عملي الاستشاري في الهيئة العامة المُشرفة على صدور المجلات.

ووقع النبأ عليَّ كالصاعقة ...

فالحق أنني لا أعرف الرجل على الصعيد الشخصي، إنه في مخيلتي مفكِّر شجاع ينتمي إلى تراث «الإصلاح الديني» في مصر من الإمام محمد عبده إلى الشيخ علي عبد الرازق إلى خالد محمد خالد، وأنه إلى جانب ذلك مفكِّر قومي عربي ينتمي إلى الأجواء الأيديولوجية لحزب البعث. من هنا تمامًا بدأت دهشتي، فاختياره بالذات مفاجأة. ثم كان اختياره لي وللدكتور عبد القادر القط مَدعاة لأن تتسع دائرة المفاجأة لتصبح شيئًا كالذهول.

لماذا؟

أجبتُ بيني وبين نفسي أن على رأس وزارة الثقافة رجل ضد الثقافة يُدعى عبد القادر حاتم، فما الذي حدث حتى يفتح صدره بكل هذه الرحابة للمثقفين؟ وقلت: ربما كان ذلك كله مقترنًا بحالة الانفراج التي توشك البلاد على الدخول فيها، وليس الرجل أكثر من أداة تنفيذ لرغبة أعلى. ولكن قلبي رغم ذلك بقي متوجِّسًا شرًّا.

على أية حال فقد بدأتُ عملي قبيل عام ١٩٦٤م بقليل. كنت ألتقي يوميًّا بالدكتور عبد القادر القط الذي عُيِّن رئيسًا لتحرير مجلة «الشعر» بينما اضطلعت بمهام إدارة التحرير إلى جانب باب عن «الثقافة العالمية» كلفني بإعداده الدكتور خلف الله لمجلة «الثقافة» الأسبوعية. وكانت الخطة الجديدة هي إصدار مجلتين متخصصتين شهريتين للقصة والشعر، ومجلتين أسبوعيتين هما: «الرسالة»، و«الثقافة».

وكانت المفاجأة الأولى هي إسناد رئاسة تحرير المجلتين الأسبوعيتين إلى أحمد حسن الزيات ومحمد فريد أبو حديد؛ لأنهما كانا يملكان المجلتين قبل الثورة. وكانت المفاجأة الثانية هي إسناد رئاسة تحرير مجلة «القصة» إلى ثروت أباظة. وبقيت «المجلة» على حالها بأيدي يحيى حقي، وأنور المعداوي، وفؤاد دوارة. كذلك كان الإعداد على قدم وساق لإصدار «الطليعة» عن مؤسسة «الأهرام» ولتغيير مجلة «الكاتب» إلى منبر سياسي برئاسة أحمد عباس صالح. وكانت أبواب السجون والمعتقلات تستعد للإفراج عن اليساريين والديمقراطيين.

هكذا بدا الأمر «انفتاحًا» على مختلف التيارات و«توازنًا» بين أشكال التعبير عنها ... فالمحافظون لهم منابرهم، والتقدميون لهم منابرهم، وحرية الفكر والتعبير تصونها وتكفلها روح الانفراج الجديد.

وسألني الدكتور عبد القادر القط: ماذا سيكون معيارنا في نشر الشعر والأبحاث النقدية؟ وقلت: جودة المستوى بغض النظر عن الاتجاه، أليست هذه هي الديمقراطية بمعناها الليبرالي؟ وعلَّق الرجل: نعم. وصمت قليلًا كمَن يفكر ثم قال: ولكن هذا لا يمنع التوازن بين ما ننشره من القديم والجديد. وصمت مرة أخرى ثم أردف: إنهم أرسلوا لنا الأستاذ طاهر الجبلاوي ليساعدنا في أعمال السكرتارية والتصحيح. ولم يكُن الخبر جديدًا، فقد أنبأني الدكتور خلف الله به قائلًا إن الأستاذ العقاد يوصي بالرجل، ولم أجِد له عملًا إلا في مجلة «الشعر» ... فقلت له: وماذا في ذلك؟ إنه رجل طيب كالدراويش، وهو عضو بلجنة الشعر في المجلس الأعلى، ويستحق المساعدة، وهو متمكن من تصحيح العروض، وفي جميع الأحوال هو مفيد، فإذا لم يكُن، فإنه ليس ضارًّا.

وصدر العدد الأول من مجلة «الشعر» وبقية المجلات القديمة الجديدة في يناير (كانون الثاني) ١٩٦٤م.

ولم يتحقَّق للعدد الأول من «الشعر» المستوى الذي كنا نحلم به ... لأن الشعر العمودي كان بالغ الرداءة، والشعر الجديد كان دون المتوسط. والأبحاث وحدها كانت على درجة من الجودة. ولم يكُن ثمة بد من دعم الجيد وطرد الرديء، فأصبح الشعر الحديث ونقده يحتلان الجانب الأكبر من الحيز، واختل التوازن الشكلي بين المدرستين.

ثم ...

خرج اليساريون من السجون في أبريل ومايو (نيسان وأيار) عام ١٩٦٤م وبدأ الكتَّاب منهم يعودون إلى صحفهم أو يحاولون ذلك، ومن لم يكُن منهم مقيدًا في إحدى

الصحف راح يبحث عن عمل ... وكان الدكتور حاتم يستقبل بعضهم بناءً على التعليمات بالترحاب الشديد، ويفتح لهم مكتبته مشيرًا إلى مؤلفات ماركس وإنجلز ولينين قائلًا: انظروا ... هذا أنا، وتلك ثقافتي. إنهم في الاتحاد السوفييتي يتهمونني بالتطرف اليساري حين أناقشهم وأستشهد قبلهم بلينين. وصدقوني، المباحث هنا قدمت للرئيس تقريرًا تتهمني فيه بالشيوعية. على أية حال، إنها ليست تهمة. أهلًا بكم.

كان بعضهم يضحك في سره، والبعض الآخَر لم يكتم الضحك، والبعض الثالث كان مشدوهًا لما يسمع. هكذا «الجو» إذَن! فقد كانت الأسطوانة الحاتمية تُدار بمجرد دخول يساري إلى مكتبه، حتى إن أحدهم راح يمزح معه قائلًا إنه يشاهد في المكتبة بعض الكتب الماركسية النادرة ويريد استعارتها. وحين خرج قال لأصدقائه: إنها الكتب نفسها التي صادرتها المباحث من منزلي!

المهم أن جو الانفتاح بدأ يشيع في المؤسسات الصحفية والثقافية، وكان لا بد أن ينتقل بالعدوى إلى إدارة المجلات بوزارة الثقافة ... هكذا قلت للسيد المدير العام — الدكتور خلف الله — وأنا أسرد عليه الأسماء التي أرغب في التعاون معها في مجلة «الشعر» وغيرها من المجلات.

وعادت الغالبية العظمى من الأقلام اليسارية إلى الصحافة المصرية. وبدأت في مجلات وزارة الثقافة تظهر بعض الأسماء التي غابت عن النشر سنوات طويلة ... ويتصادف أو لا يتصادف أن المواهب اليسارية في الترجمة والنقد والبحث كانت أكثر من غيرها كفاءة ... وقد اتضح ذلك على الفور على صفحات مجلة «الشعر»، أحيانًا «القصة»، وأحيانًا «الثقافة» ومعظم الأحيان في «المجلة». ويتصادف أو لا يتصادف أن المواهب السلفية كانت فقيرة وقليلة وعقيمة، حتى إن مجلتَي «الرسالة» و«الثقافة» استعانتا بالموظفين الإداريين في ديوان الوزارة ليسوِّدوا الصفحات على أي نحو كان.

وظلَّ الموقف هكذا تسعة أشهر كاملة ... كانت المخازن خلالها تتكدَّس بأعداد «الرسالة»، بينما «الشعر» تنفد من الأسواق حال ظهورها ...

وجاءني الدكتور القط ذات يوم بأدب جم ومحبة غامرة إذ تربطني بالرجل صداقة قوية بالإضافة إلى علاقة التلميذ بأستاذه فقد علمني الكثير وقال لي: ألا يمكن التقليل من الأسماء اليسارية، وكذلك من الشعراء الجدد؟

و«لعب الفار في عبي» كما يقولون. ماذا حدث؟ لقد كان الأستاذ طاهر الجبلاوي يهمس لي بين الحين والآخَر بهذا المعنى ملفوفًا في ورق السلفان وبكثير من اللف والدوران. ذلك أن الرجل — بالفعل — درويش طيِّب وقد نمَت بيننا علاقة الإلف والصداقة، وهو

يريد أن يصارحني دون أن يصدمني بما يدور في كواليس لجنة الشعر بالمجلس الأعلى. وكنت أظن الأمر ثرثرة مقاهي وغيرة الماضي من المستقبل. ولكن لهجة الدكتور القط تحمل في نغماتها حزنًا دفينًا كشبح النذير.

وفجأة، وفي وقت واحد، وقعت حادثتان خطيرتان.

بدأت الحادثة الأولى باجتماع طارئ للجنة الشعر بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، أصدرت على أثره بيانًا يقول:

- إن البلاد عرفت في الآونة الأخيرة موجة من الإلحاد والوثنية في الشعر، ذلك أن الذين يسمون أنفسهم بالشعراء «الجدد» ليسوا إلا حرابًا مسمومة موجَّهة إلى صدر الإسلام، فهم يسمحون لأنفسهم باستخدام إشارات ورموز مستوحاة من ديانات غير موحدة بالله.
- إن هذه الموجة ليست معادية للإسلام فحسب، بل هي ضد العروبة أيضًا؛ لأنها تهدم قواعد اللغة والعروض التي ورثناها عن الآباء والأجداد وأجداد الأجداد، وهم يجمحون في العودة بالمخيلة إلى أمجاد إقليمية فهم شعوبيون جدد، لا يأنفون من استخدام العامية أحيانًا وكسر عنق البلاغة العربية في أغلب الأحيان. إن اللغة هي تراث الأمة وأخطر مقوماتها. وهؤلاء الذين ينتحلون صفة «الشعراء» قسرًا هم أعدى أعداء لغتنا وأمتنا.
- إنهم «قرامزة» لا علاقة لهم بالتراب المقدس لهذا الوطن، لأنهم يمجدون بطولات حمراء في بلاد غيرنا، ولأنهم يحضُّون على الحرب بين الطبقات ويحرِّضون سائر الناس على البغي والمنكر وانعدام الأخلاق السوية التي ورثناها عن الأقدمين.
- إن لجنة الشعر بالمجلس الأعلى وقد تأسست لصون تراث هذه الأمة ولغتها وشعرها من حقها أن تشرف على وسائل النشر كافة، والإذاعة التي تصل عبرها هذه «السموم» إلى المواطنين، وهي الأولى بالإشراف على مجلة «الشعر» بالذات، لأنها تصدر عن دولة لها تقاليدها وقيمها لا عن بضعة أفراد لهم مطلق الحرية في التعبير عن أنفسهم بوسائلهم الخاصة.

هذا — على وجه التقريب — موجَز البيان الذي هبط كالصاعقة على رءوس الجميع. على رءوس المواطنين أولًا، ثم على رءوس الشعراء، ثم رءوس المشرفين على المجلات الثقافية.

وكما تصورت بادئ الأمر أن ثرثرة الأستاذ الجبلاوي لا تعدو كونها غيرة الماضي من المستقبل وأن تحذير الدكتور القط من قبيل المبالغة والحساسية المُرهَفة التي يتمتع بها لدرجة التشاؤم، فإنني — رغم المفاجأة — قدرت الأمر على أنه مجرد تحدٍّ من جانب عزيز أباظة، وصالح جودت، ومحمود غنيم، والعوضي الوكيل.

ولكني كنت على درجة هائلة من حسن النية والسذاجة. ذلك أن لجنة الشعر تضم بين صفوفها السيدة ملك عبد العزيز، والأستاذ صلاح عبد الصبور. ولجنة الشعر تعرف أحمد عبد المعطي حجازي ومحمد عفيفي مطر ومحمد إبراهيم أبو سنة في مصر وبدر شاكر السياب ونازك الملائكة وعبد الوهاب البياتي في العراق، ومحمد الفيتوري وتاج السر الحسن وجيلي عبد الرحمن في السودان، ونزار قباني وعلي الجندي وشوقي بغدادي وعلي كنعان ومحمد عمران وممدوح عدوان في سوريا، وغيرهم من الشعراء الحديثين — روَّادًا وشبابًا — في جميع أنحاء الوطن العربي. ويعلم الناس قبل لجنة الشعر أن هؤلاء الشعراء من الطلائع المتقدِّمة المناضلة العربية، وأنهم — جميعًا — مسلمون، وأنهم — جميعًا — ضد الاستعمار. وأن قضية الشعر الجديد — على صعيد الشكل والمضمون — هي قضية فكرية واجتماعية تختلف بها هذه الطلائع عن الأكثرية الساحقة من التقليديين، لأسباب يتصل بعضها بروح العصر وصراع الأجيال وتبايُن التجربة والثقافة ويتصل بعضها الآخر بطبيعة المرحلة الوطنية والاجتماعية التي يمرُّ فيها الوطن.

ولكني كنت ساذجًا. ولم أكُن وحدي، بل إن غالبية المثقفين الوطنيين الذين ذهبوا إلى الدكتور حاتم محتجين، والذين راحوا يكتبون في الصحف والمجلات مدافعين، لا يقلون عني سذاجة. ذلك أن حوارًا حادًّا أو هادئًا حول الشعر القديم والجديد لا يثير أحدًا، فالصراع دائر حول القضية منذ بداية الخمسينيات. ولكن لهجة البيان وصياغته — التي قام بها الدكتور زكي نجيب محمود — كان يجب أن تنبهنا إلى أن شيئًا خطيرًا، لا علاقة له بالشعر — وإن اتخذه مشجبًا — على وشك الحدوث.

وفي غمرة الصراع الفكري حول الشعر الذي قدم فيه عبد القادر القط وصلاح عبد الصبور وأحمد حجازي مساجلات بارزة، ناداني الدكتور خلف الله بوجه متجهم على غير العادة وقال لي في إيجاز: إنني آسف لأن أبلغك قرارًا مؤلمًا هو أن الوزارة قد استغنت عن التعاون معك في مجلة «الشعر» وبقية المجلات. ولأنك موظف بالمكافأة الثابتة، ولست موظفًا على درجة مالية، فقد رتَّبنا لك الأمور المادية بما يرضيك.

وكان هذا الترتيب هو إعطائي مرتَّبَ شهر إضافيًّا. وقد استغربت لأن المدير العام ظلَّ مستغرقًا في الجانب البيروقراطي من الموضوع، بينما ظللتُ أنا ساهمًا فيما يجري حولي

بعين جديدة ... كمَن يُفيق من نوم عميق، رحت أفكر وأرقب بعين مفتوحة ... فبعد هذا اللقاء مباشرةً توجَّه لتسلم مكاني في مجلة «الشعر» الأستاذان محمود حسن إسماعيل، وعبده بدوي. وتم استبعاد الأسماء ذات الرنين التقدمي في بقية المجلات، وانقلبت مجلة «الشعر» كالبهلوان وأصبحت بوقًا لشلة لجنة الشعر.

وبعد أسبوع واحد من إقالتي كان الدكتور خلف الله نفسه يترك موقعه في إدارة المجلات ليذهب — بلا عمل — إلى ما يسمى مجازًا بإدارة التخطيط.

ولم أمُت جوعًا، فقد سارع يحيى حقي وأنور المعداوي إلى لجنة التفرُّغ، وحصلت منها على عام كامل بمرتب شهري كافٍ. ولم يكُن العام قد انتهى حين عُيِّنتُ في مؤسسة «الأهرام» ناقدًا أدبيًّا لمجلة «الطليعة».

وليس ذلك كله مهمًّا. وإنما كان المهم حقًّا هو ما جرى وما يجري.

ورحت بذاكرتي أرصد «علامات» الشهور القليلة الماضية. لم يكُن الإفراج عن زملائي عملًا سهلًا. كان صراعًا ضاريًا في قمة السلطة. وتأكد لي ذلك بما لا يدع مجالًا للشك حين صارحنا عبد الناصر عام ١٩٦٩م عند اجتماعه بأسرة «الطليعة» — وقد حضر الاجتماع أنور السادات ومحمد حسنين هيكل — أنه لولاه لكنا لا نزال في الصحراء. لم يكُن إفراج عام ١٩٦٤م إجماعًا إذَن، وإنما كان صراعًا عنيفًا تكلَّل بالدم على باب الخروج ... فقد افتعلت إدارة السجن معركة مع المعتقلين قبيل ذهابهم راح ضحيتها المناضل الشهيد لويس إسحاق، غير مَن جُرحوا. هكذا إلى اللحظة الأخيرة كان الصراع ملتهبًا، ولم يكُن قد انتهى بالطبع بالخروج. مئات من العمال لم يعودوا إلى أعمالهم، ومئات من الموظفين الصغار تلكَّأَت إجراءات إعادتهم، والقلائل من ذوي الكفاءات العالية بقوا شهورًا في بيوتهم، ورجال الإعلام عادوا محاصرين ماديًّا ومعنويًّا.

كان قرار الانفتاح على اليسار قرارًا علويًّا. أما قنوات التنفيذ فكانت مسدودة بعشرات المتناقضات. كان اليمين — بإجراءات ٦٢ — قد تقلص نفوذه على الصعيد الاقتصادي، ولكن غياب الاشتراكيين في السجون أضاف إلى نفوذه رصيدًا في مراكز الإدارة والإعلام. وكان بقاء حاتم على قمة الإعلام والثقافة إبقاءً لذات الأجهزة المعادية لليسار حتى وإن رحَّبَت به مَلقًا لصاحب الأمر. إن الدكتور حاتم هو رئيس المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وبيان لجنة الشعر وما يُنفَّذ من إجراءات في إدارة المجلات الثقافية، ليس بعيدًا عن إشرافه المباشر.

وهنا استدرت ممعنًا النظر في الحادثة الثانية التي وقعَت في الوقت نفسه. كانت مجلة «الرسالة» قد بدأت سلسلة من المقالات بتوقيع المحقِّق اللغوي المعروف محمود

شاكر يرد بها على سلسلة من المقالات كتبها الدكتور لويس عوض في «الأهرام». كان لويس عوض راح يقارن صور «العالم الآخر» في الآداب المختلفة، وركز البحث في خاتمة الرحلة على رسالة الغفران لأبي العلاء المعري والكوميديا الإلهية لدانتي. وقد أفاض الرجل في إبراز الخيال المبدع والإضافات الخلَّاقة التي تميَّز بها عمل المعري، وإن لم يستبعد التأثير والتأثر المتبادلين في الثقافات القديمة. ويستحيل على أي قارئ منصف لأطروحة الدكتور لويس عوض أن يستخلص ترجيحه لأن يكون المعري قد سرق من الآداب اليونانية واللاتينية القديمة. ومع ذلك فأي عمل علمي، خاصة في مجالات العلوم الإنسانية وبصفة أخص في ميدان الأدب المقارن، معرَّض للنقد والاختلاف والحوار.

وقد بدَت مقالات محمود شاكر في الرسالة لأول وهلة وكأنها رد علمي يَحترم الرأي الآخَر. ولكنها سرعان ما تحوَّلَت عن هذا المنطلق إلى منزلقات طائفية ذميمة، استخدم فيها صاحبها كافة معاجم استعداء السلطة والاتهام بالشعوبية ومعاداة الإسلام إلى آخِر القائمة. وقد انتقل بمقالاته من الرد على أطروحة «الغفران» إلى التعليق على كل ما كتبه لويس عوض في حياته.

تحوَّل الرد إلى حملة أسبوعية استهلكت مئات الصفحات، تدخل فيها إلى جانب محمود شاكر مجموعة من الموظفين الصغار، كما أنها لم تعُد وقفًا على لويس عوض وإنما على «تيار قبطي في الثقافة المصرية»! وكان التوقيت مذهلًا، فالحملة على لويس عوض والحملة على مجلة «الشعر»، أقبلتا معا وكأنهما بتنسيق خفي!

ومن الطبيعي بعد أن «تطهرت» إدارة المجلات من الأقلام اليسارية، أن ينفسح المجال واسعًا أمام هذه النغمة الغريبة على التقاليد الوطنية المصرية ... عزفت لجنة الشعر على الوتر الفني في الشعر الحديث وقالت إن رموز الصليب والتثليث والمسيح وبروميثيوس وسيزيف وأوزوريس، هي رموز مسيحية وثنية تعادي العروبة والإسلام، وأن الانقلاب الموسيقي على الخليل بن أحمد الفراهيدي هو ثورة مضادة للعروبة والإسلام. كذلك عزفت مجلة «الرسالة» على الوتر الفكري في أعمال سلامة موسى ولويس عوض وغيرهما، وقالت إن التراث هو الإسلام وحده وغيره كفر، بل قال محمود شاكر وجلال كشك وغيرهما إن القومية العربية ذاتها مؤامرة استعمارية ضد الوحدة الإسلامية وإن الدولة العثمانية كانت السلطة القريبة من الله وكتابه الكريم.

وتحولت «الرسالة» إلى ما يشبه جريدة «الدعوة» التي كان يصدرها الإخوان المسلمون، إلى ما يشبه المنشورات الداعية إلى قلب نظام الحكم. وانهالت البرقيات على رئاسة

الجمهورية وجريدة «الأهرام» تطالب بإقصاء لويس عوض وتطهير الصحافة كلها من «الكفار الملحدين الحمر» جنبًا إلى جنب مع المناداة بالاشتراكية الإسلامية. وراح الشيخ محمد الغزالي يخطب في المساجد ضد رسام الكاريكاتير صلاح جاهين الذي كان متحمِّسًا لعلمنة الأزهر وتطوير قانون الأحوال الشخصية. وخطب شيخ آخَر أثناء زيارة خروشوف داعيًا إلى «الجهاد» و«الشهادة» ما دامت الأمور قد وصلت إلى هذا الحد.

ولأن الصراع كان حادًّا على المستويات كافة حتى قمة السلطة فقد حدث شيء غريب في الوقت الذي بدَت فيه بوادر الانفراج، إذ استطاع حلمي سلام — رئيس تحرير «الجمهورية» حينذاك — بوحي من المشير عامر أن ينقل قرابة أربعين صحفيًّا إلى مؤسسات الأخشاب والأسماك والحلوى والأحذية، كان من بينهم كتَّاب مرموقون كعبد الرحمن الشرقاوي، والخميسي، وأحمد عباس صالح ... وغيرهم.

وفي هذا المناخ بالضبط عام ١٩٦٥م قامت المنظمات الشيوعية بحلِّ نفسها. كان الأمر يبدو فوق السطح مزيدًا من الالتفاف حول قيادة عبد الناصر لتوحيد الجهد والإسراع في طريق التحول السلمي نحو الاشتراكية. ولكنه تحت السطح كان يشكِّل مفارقة تاريخية مؤسية ... إذ كان اليمين المتطرف يجمع صفوفه تحت الأرض وينظِّم تشكيلاته ويستعد لوثبة مسلَّحة ضد اليسار والنظام.

وهكذا فجأة، بدت البيانات الرجعية ومقالات الفتنة الطائفية وكأن لا علاقة لها بلويس عوض ولا بالشعراء الجدد ولا بمجلة الشعر ... كانت تمهيدًا سافرًا لمؤامرة صيف ٦٥ التي استهدفت الإطاحة بجمال عبد الناصر. وكانت ضمن المضبوطات في حيازة الإخوان المسلمين قوائم بأسماء الكتَّاب الوطنيين والتقدميين المطلوب اغتيالهم.

والمفارقة التي عنيتها هي أن الإجراءات الوطنية التي اتخذها عبد الناصر كانت تحتاج إلى دعم اليسار بتوحيد صفوفه ومنظماته، لا بحلِّها ... في مواجهة اليمين القوي المنظَّم. ذلك أن انصهار بعض المناضلين في الاتحاد الاشتراكي أدَّى إلى ذوبانهم في بحر مضطرِم الأمواج لا علاقة له بالنضال من أجل الاشتراكية.

بينما أصبح الشارع الشعبي مفتوحًا على مصراعَيه لتنظيمات اليمين. بالإضافة إلى أن حل التنظيمات الشيوعية لم يساعد الحكم الناصري على حل التناقض الفاجع داخله بين المضمون الوطني والأسلوب السياسي غير الديمقراطي. لقد أقبل حل المنظمات اليسارية ليكرِّس رغم أنف النوايا هذا التناقض وليمنحه شرعية.

المهم أن اليسار الذي لم يتصور قط أن معركة الشعر الجديد ومعركة شاكر – عوض، تتجاوز الثقافة والأفراد، لم تسمح له الأجهزة بالرد على الأطروحة الطائفية المتفجرة في مجلات وزارة الثقافة.

وحين أسفرت الفتنة عن وجهها المسلَّح تصدَّت لها أجهزة الأمن بالسجون والمعتقلات والمشانق. أما «الفكر» فقد ظلَّ خبيء الصدور وحبيس القلوب والعقول. وأما الصراع، فقد ظلَّ مستورًا بأغلفة برَّاقة من الشعارات.

واكتفى الرئيس عبد الناصر بإهداء «وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى» إلى الدكتور لويس عوض.

واكتفى شعراوي جمعة — عام ١٩٦٦م — بأن يكون أول عمل له في وزارة الداخلية، هو القبض على جيلين من مثقفي اليسار.

وحين دخلت معتقل طرة في التاسع من أكتوبر (تشرين الأول) عام ١٩٦٦م كان المشهد أمامي يدعو إلى الجنون: يقيم معي في عنبر واحد فوزي جرجس ورءوف نظمي وإبراهيم فتحي وعادل أمين وعلي الشوباشي ومحمود عزمي وأحمد فرج ومنصور زكي وعبد الرحمن الأبنودي وسيد حجاب وسيد خميس وصبري حافظ ومحمود حشمت وجمال الغيطاني، وغيرهم عشرات من الشيوخ والكهول والشباب اليساري (وكانوا قد أفرجوا عن لطفي الخولي ومحمد الخفيف وإبراهيم سعد الدين وأمين عز الدين بعد يوم أو يومين من اعتقالهم). وفي العنبر المقابل أرى حافظ شيحا وياسين سراج الدين وسيف الغزالي من الوفديين الذين أمسكوهم في جنازة مصطفى النحاس. وفي العنابر المجاورة أرى الشيخ محمود شاكر ومئات من الإخوان المسلمين.

بقي بعضنا سبعين يومًا بين طرة والقلعة، وبقي البعض الآخَر حتى وقعت هزيمة حزيران عام ١٩٦٧م.

على الرغم من الهزيمة «البوليسية» لليمين، فإن القوى الرجعية في الداخل والقوى الاستعمارية في الخارج استطاعت أن توقع بالنظام هزيمة عسكرية وأخرى سياسية. ولم تكُن «القوى الرجعية في الداخل» تعني الإخوان المسلمين وحدهم أو بقايا الطبقات القديمة وحدها، وإنما كان العمود الفقري لسلطة النظام قد استضاف من صلبه ومن نخاعه الجاري في العظام عدة «فقرات» سُمِّيت تجاوزًا بالطبقة الجديدة. إنها الطبقة التي تَنبَّه عبد الناصر إلى خطورتها وأخذ يضرب بعض أجنحتها العسكرية والأمنية فيما

يُسمَّى بسقوط دولة المخابرات. لذلك، فإن وقف مجلات وزارة الثقافة وإقالة الدكتور حاتم وحبس الإخوان المسلمين كل ذلك عام ١٩٦٥م لم يمنع الهزيمة من الحدوث. ذلك أن التناقض المأساوي كان فادحًا، بين مجموع التشريعات والإجراءات والقرارات التي يُصدرها عبد الناصر من جانب، والتركيب الاجتماعي للسلطة وصيغة الاتحاد الاشتراكي من جانب آخَر. وقد ظلَّ هذا التناقض قائمًا بعد ١٩٦٥م وبعد ١٩٦٧م، بل إن الهزيمة هيَّأت له — عمليًّا — مناخًا صالحًا للازدهار باسم المراجعة والوحدة الوطنية.

فبدلًا من إبراز التناقض الفادح الثمن في جسم النظام وحله ثوريًّا بالانحياز إلى جانب التقدم، عَلَت الأصوات المتعفِّنة صائحة بأن الاشتراكية (التي لم تولد قط) هي السبب، وأن البُعد عن الدين (الذي لم يحدث قط) هو السبب، وأن السلاح الروسي (الذي لم يكن قد استُخدم بعد) هو السبب في كارثة يونيو (حزيران) ١٩٦٧م.

ورحل عبد الناصر عام ١٩٧٠م.

وكان المد الرجعي على الصعيدين المحلي والعربي قد بلغ ذروته في مجزرة أيلول الأردنية.

وانحل — شكلًا — صراع السلطة في مصر بأحداث ١٤ و١٥ مايو (أيار) ١٩٧١م.

وتدعمت الطبقة الجديدة بفئات قادمة من الريف، ومن ذكريات البورصة.

واشتعلت حركة الطلاب المصريين عام ١٩٧٢م. لم تكُن قد هدأت منذ فبراير (شباط) ١٩٦٨م، ولكنها بعد أن كانت رد فعل لمحاكمة قادة الطيران أضحت فعلًا ثوريًّا ناقمًا على تحولات النظام الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ناحية اليمين.

ووقف المثقفون والمهنيون والعمال والفلاحون إلى جانب الطلاب. وبدَت البلاد وكأنها على أبواب «إضراب قومي شامل».

وعادت نغمة «الدين» تحتل موقع الصدارة بأقلام غير متديِّنة كأنيس منصور ومصطفى محمود. ثم بدأت رياح الفتنة الطائفية تتحرك. ووقف أحد المحافظين — محمد عثمان إسماعيل — ليقول بالحرف الواحد: أعداؤنا ثلاثة هم المسيحيون والشيوعيون واليهود حسب هذا الترتيب. ووقف آخَر في ندوة علنية بقاعة اللجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي ليقول: نريد عقيدتنا ولا نريد سيناء. وبدأ الشيخ عبد الحليم محمود يكتب في «الأهرام» أن أرسطو هو السبب في اندحار الدولة الإسلامية.

واحتدم الصراع …

وهرعتُ إلى توفيق الحكيم، وكان قد أُتيح لي طيلة السنوات العشر الماضية أن أتعرف عليه معرفة شخصية حميمة، ولكني لم أرَه قط على هذه الدرجة من الانزعاج وعنف

التعبير عن هذا الانزعاج كما رأيته في هذه الأيام الأخيرة، بل الشهور الأخيرة وأصبح مكتبه في الطابق السادس؛ حيث أقيم بالقرب منه في «الطليعة» منتدًى سياسيًّا صغيرًا يؤمه الشباب والكهول والشيوخ ممَّن تؤرقهم قضية الوطن ليل نهار.

حين خلوت به ذات يوم من تلك الأيام العصيبة (٨–١–١٩٧٣م) وأغلقت الباب ورفعنا سماعة التليفون، قال لي هذا الرجل الذي تجاوز السبعين في حدة شاب لم يبلغ العشرين: هناك ناس في بلادنا يريدون الرجوع بنا إلى مائتي سنة إلى الوراء … ليس هذا تدينا ما نشاهده في التلفزيون ونسمعه في الإذاعة ويمتد أثره إلى رحاب الجامعة وملابس الطالبات. إنه «هوس» و«دروشة» و«جنون» تعبيره السياسي المؤكد أن نتحول إلى مجتمع ضد المدنية والحضارة، مجتمع ينتمي إلى أكثر العصور ظلامًا.

كانت الكلمات تغلي على لسان توفيق الحكيم، وانفعالات وجهه تتبدل خطوطها وألوانها بسرعة الضوء، حتى أنني اضطربت على «قلب» الرجل من فرط الحماس المتوهج بالغضب … ولكنه راح يزجرني بعنف: قل لي، ماذا تفعلون أنتم يا شباب هذا الجيل؟

أنت تعلم ماذا يصنع شباب مصر؟

قاطعني بقسوة: هذا لا يكفي … العبء كله على طلبة الجامعات، وحتى هؤلاء بدأت تتسرب بينهم التيارات الخبيثة التي تتلفع بثياب الدين وتخفي أظافرها المتعطشة للدم بقفازات حريرية من السلف الصالح. البنات في كليات علمية كالطب والهندسة بدأن يرتدين «الطرحة» التي يلبسنها النساء في الحج. هذا غير معقول بمصر التي يمتد تاريخها الحضاري إلى سبعة آلاف سنة … سأدعو بأعلى صوت إلى تكوين جمعية لحماية الحضارة في بلادي ضد أعداء الحضارة، أولئك الذين يتهدجون بالصلوات والعبارات نهارًا، وفي ظلام الليل تجدهم في شارع الهرم والأحياء الراقية و«الشقق المفروشة» … ليس هذا «تيارًا دينيًّا» بالمعنى الذي كنا نعرفه ضمن تيارات عديدة في الثلاثينيات والأربعينيات من هذا القرن … ذلك أن «الدين» كتيار فكري له حق الوجود كغيره من التيارات الفكرية … إن ما أراه الآن ليس كذلك، أنه تيار مدمِّر لكل قيمة حضارية، بل هو مدمر للأخلاق نفسها، حتى بمعناها الديني. ذلك أن الشواهد كلها تقول إن التحلل والتفسخ والعفن هو الوجه الآخَر لعملة «الدولة الدينية» التي يُنادي بها البعض الآن. الدين كان وسيظل علاقة شخصية بين الفرد وربه، أما الدولة فشيء آخَر، والبشر وحدهم هم المسئولون عنها.

كان توفيق الحكيم يتدفَّق كسيل منهمر، حاولت أن أهدئ من «معدل سرعة التيار» قائلًا: ما تفسيرك لهذه الظاهرة حتى نضع أيدينا على الجذور، قبل أن نحاول البحث عن

العلاج ... إن جمعية ثقافية لحماية الحضارة فكرة طيبة، ولكنها فكرة جزئية وعلوية فيما أرى ... أي إنها وثيقة الارتباط بنشاط الصفوة العقلية والفكرية إنْ جاز التعبير. لا بد من البحث عن أشكال أخرى تتصل بالأسباب العميقة، بالجذور.

في هدوء طارئ أجابني توفيق الحكيم: بالطبع، هناك تراكم سلبيات العشرين عامًا الماضية، رغم الإيجابيات التي لا ينكرها أحد، ولكن الهزيمة في ٦٧ فجَّرَت ما كان يغلي في الباطن ودفعت به إلى السطح، هكذا دفعة واحدة.

ولكن الهزيمة في حياة شعوب كثيرة كانت نقطة تحوُّل إلى الأمام والبناء، وبالتالي فالتيار الفكري والسياسي المرشَّح بعد الهزيمة للتقدم بإنساننا هو عكس ما نراه الآن. الإنسان المهزوم قد يتشبَّث بالقوى الغيبية أمام الصدمة، أما أن تتحول هذه القوى إلى مشجب نعلِّق عليه خطايانا، فهو امتهان للعقل البشري من ناحية، وتجاهل للأسباب الحقيقية التي أدَّت بنا إلى الهزيمة من ناحية أخرى ... وصحيح أن مجموع الشعب مسئول عن الهزيمة، ولكن هذا تجريد وتبسيط يبتذل القضية المطروحة ... فنحن جميعًا مسئولون حسب موقع كلٍّ منا ودوره. ولا شك أن النظام السابق على ٢٣ يوليو كان آيلًا للسقوط، وقد ورث النظام الجديد أعباءً ثقيلة من الماضي ... ولكن الصحيح أيضًا هو أن النظام الجديد رغم إنجازه الكثير قد ضلَّ السبيل في معالجة الكثير من القضايا وفي مقدمتها قضية الديمقراطية وقضية العدل الاجتماعي. إن حرية الفكر والتعبير جنبًا إلى جنب مع حرية الإنسان الاجتماعية لم تلقَ من الضمانات السياسية والتنظيمية ما يَحُول دونهما والعثرات التي تعاظمت قبل الهزيمة، وبعدها للأسف.

قاطعته في اللحظة التي بدأت فيها نبرة صوته ترتعش: يظلُّ سؤالك المهم قائمًا، وهو لماذا لم تكُن الهزيمة نقطة انطلاق نحو بداية جديدة تستوعب إيجابيات الماضي وتلفظ سلبياته وتبني حياة جديدة؟

التفت في مرارة نضحت على وجهه ابتسامة قصيرة ومتعجلة، وراح يقول بعينين زائغتين بين الباب والنافذة الواسعة المطلَّة على الشارع المضطرب بشتى التناقضات: إن جوهر الأخطاء ظلَّ قائمًا، فرفع الشعارات وتغيير الأشخاص لا يجدي شيئًا إذا ظلَّت الأمور على ما هي عليه، بل إن ذلك هو الذي يفاقم المشكلات، فحركات الشباب المتوالية منذ ٦٨ هي أحد التعبيرات عن هذا التفاقم، وحياتنا الثقافية الخالية من المنابر الجادة هي التي تدفع كتابنا إلى نشر إنتاجهم في عواصم عربية أخرى، وهي كذلك تعبير آخَر عن هذا التفاقم، والأحداث الطائفية الغريبة على مصر وشعبها وحضارتها تعبير ثالث، وهكذا

... ذلك أن أصحاب المصلحة الحقيقية في التغيير إلى أمام ليسوا ممثلين تمثيلًا حقيقًا في الأجهزة والمؤسسات القادرة على إحداث التغيير ... لذلك فنحن نستغني باللافتات عن المضمون وبالوجوه عن الظهور وبالقمم عن القواعد. إن حماية نظامنا — كمجموعة من التشريعات الاقتصادية والاجتماعية — تتطلب عملًا ديمقراطيًّا متواصلًا، يدعم هذا النظام بتطويره، لأن الوجود لا يعرف التوقف ولا يكفُّ عن الحركة، فهي إما إلى الإمام وإما إلى الخلف ... حتى «محلك سر» هي حركة، وليست جمودًا. وأعداؤنا كثيرون: الاستعمار الأمريكي والصهيونية العالمية ودولة إسرائيل وبعض الأنظمة العربية، وبعض الطبقات الاجتماعية داخل حدودنا تستفيد من تقهقر الوضع، وهي التي تغذي التيارات المتخلفة التي ترتدي ثياب الدين.

وصمت توفيق الحكيم لحظات طويلة وحدَقَتا عينيه تتحركان في محجريهما بسرعة مذهلة، ولكنها متسقة مع حركة يديه اللتين تتشاجران مع أصابع بعضهما البعض تشاجُرًا عنيفًا، ثم قال: إنني أفكر جديًّا في التوقف عن الكتابة.

فاجأتني العبارة فرُحت أنا الآخَر في صمت مماثل، ووضعت رأسي على مرفقي ... كنت أسترجع أشياء كثيرة وأفكر، ولكن اختلاط الألوان والخطوط كاد يبعدني عن توفيق الحكيم ويقربني منه أكثر في وقت واحد. سألته: كيف؟

وأجاب: لست وحدي ... يجب أن يقف الكتاب رغم تباين اتجاهاتهم الفكرية صفًّا واحدًا، ونكتب بيانًا للدكتور حاتم عمَّا آلت إليه أوضاع حياتنا الثقافية والفكرية والفنية ... ولن ننشر هذا البيان إلا إذا تُجُوهل ووُضع في سلة المهملات ... حينذاك لن ننشره فحسب، بل نتوقف عن الكتابة التي تكاد — في ظل هذا المناخ — تصبح بلا معنًى.

رفعت وجهي إليه لأطالع سطور الزمن، وهي تعود بهذا «الشيخ» إلى زهرة العمر ... لم يكُن في ذلك الوقت البعيد إلا عصفورًا من الشرق، أما الآن فهو يعيش شبابه الحقيقي، يعيش عصره وآلام وطنه أكثر كثيرًا مما كان يعيشها في تلك الأيام التي كان يعمل فيها نائبًا بالأرياف، وحاولت أن أستأنف الحديث من زاوية أخرى: الديمقراطية والعدل الاجتماعي، هي الأخرى كلمات عامة ... إن الاحتلال الإسرائيلي لجزء من أراضينا هو الصورة المباشرة لجرحنا القومي، والخلاص من هذا الجرح الدامي يستوجب عملًا ديمقراطيًّا وعدلًا اجتماعيًّا، ولكن كيف؟ إن التوقف عن الكتابة قد يكون احتجاجًا لفترة من الوقت، وقد يصل إلى حدود العمل الفردي، لأن الكثيرين سيرفضون الفكرة من مواقع مختلفة، فوق أنها فكرة تجسد موقف الأدباء وحدهم ... ما الحل القومي الشامل؟ يجب

أن نعرف حدودنا كأدباء وكتَّاب، إننا لا نكتب برامج لأحزاب سياسية، إننا ضمير الأمة فحسب، ولسنا أجهزة تنظيمية. معنى هذا الكلام بوضوح أنه ليس مطلوبًا منَّا ما قد يكون مطلوبًا من طوائف أخرى، ممارسة العمل السياسي المباشر وظيفتها. أما نحن فيكفينا التنبيه والتحذير والتوجيه والإيقاظ. الحل القومي الشامل بالنسبة إليَّ يعني في المقام الأول أن تقف هذه الأمة وقفة رجل واحد مهما كانت التناقضات الاجتماعية في وجه العدوان الهمجي على حضارتنا. ليس معنى ذلك أن نفتعل وحدة الصفوف، هذا أبعَد ما يكون عن خاطري، ولكني أقول بالحد الأدنى من الاتفاق حول أهداف أخطر بكثير من المصالح الموقوتة لبعضنا. والزمن يجري، وسواء شعرنا بذلك أو لم نشعر فهو يجري ... حتى إن طبيعة القضايا تتغيَّر من وقت إلى آخَر. إن «المسألة المصرية» في وقت مضى كانت تعني جلاء الاحتلال البريطاني، وكانت أيامها الأمور واضحة فالملك والإنجليز وأشباه الإقطاعيين في جانب، والشعب كله في الجانب الآخَر. في وقتنا لم تعُد «المسألة المصرية» هي مجرد المناداة بتحرير سيناء، فتحرير الإنسان المصري الراهن هو الطريق الطويل المُرهِق إلى تحرير سيناء، وليس العكس. تحرير الإنسان المصري من الخوف والوهم والفقر هو دعامتنا الأساسية لتحرير سيناء. وأعتقد أن هذه المحاور الثلاثة هي الغالبة على كتاباتي الأخيرة كلها.

قال هذه الكلمات وتنهَّد بعدها تنهيدة عميقة كزفرة أسى، ولاحظته يحملق في الفراغ ويمسك كتفَي المقعد بكلتا يدَيه، ثم يصوِّب بصره إليَّ في خط مستقيم، وهو يتمتم بما يشبه الهمس: لقد لاحظت ترددك في قبول فكرة التوقف عن الكتابة، أو كتابة بيان لوزير الثقافة والإعلام في شأن حياتنا الفكرية ... وقاطعته: لم أتردَّد ولكن أفكر معك.

— وأنا الآخَر أفكر معك ... إن بيانًا عن أوضاع حياتنا الفكرية لا يكفي ... فالدنيا تهدر من حولنا وشبابنا — خصوصًا طلبة الجامعات — يعاني أزمة عميقة ... وليست الأفلام الهابطة والمسارح الفارغة والمسلسلات الإذاعية المنحطة واختفاء المنابر الجادة إلا صورة جزئية لما نجتازه من مشكلات حادة، علينا أن نواجهها بشجاعة.

وصمتَ طويلًا حتى كدت أتصوَّر أنه أتمَّ فكرته، ولكنه مزق تخيلاتي حين قال فجأة: لماذا يقتصر البيان على حال الثقافة، ليكن بيانًا للمسئولين، ولكن عن الوضع السياسي والاجتماعي بأكمله، من خلال أحداث الطلبة الأخيرة.

وراح يهز رأسه كمن اكتشف شيئًا كان طول الوقت بالقرب منه ... واستمرَّ يهز الرأس على إيقاع الأفكار التي تتنازعه، حتى استقرَّت أخيرًا على ذراعَيه وقد تشابكا فوق مكتبه.

ربما كانت تلك لحظة الحسم في حياة فكره وفنه ... ولكنه على أية حال لم يكُن «يمثِّل»، كان يغلي. ربما كانت أكوام من الذكريات قد تكدَّسَت مرة واحدة، وربما كان ركامًا مختزنًا من التأملات قد سطا على وعيه دفعة واحدة ... وربما ... وربما ... ولكن ما لا شك فيه أن توفيق الحكيم لم يكُن وهو يفعل ذلك كله من سكان البرج العاجي رغم إقامته في هذا الجناح الذي ندعوه في الأهرام بالبرج.

وإنما كان قلب توفيق الحكيم نابضًا بأحر الدماء السارية في شرايين شعبه، وكان عقله يدق الدقات الثلاث السابقة على فتح الستار.

كان هذا الحديث بيني وبين توفيق الحكيم يوم ٨–١–١٩٧٣م بعدها بثلاثة أيام فحسب أصدر بيانه الشهير الذي لم يوقِّع عليه سوى المثقفين الوطنيين والديمقراطيين واليساريين. كان هؤلاء قد اكتفوا بالبيانات التي أصدرها في نقابة الصحفيين أو تجمُّعات الأدباء، يناشدون فيها الرئيس أن يَحُول دون الطوفان القادم.

ولكننا صباح ٤ فبراير (شباط) ١٩٧٣م فوجئنا بصدر الصفحة الأولى من جميع الصحف المصرية وقد ازدانت بأسماء مجموعة لامعة من الوجوه الثقافية الوطنية والتقدمية مع ديباجة قصيرة تعني أنهم فُصلوا من عضوية الاتحاد الاشتراكي، وبالتالي من أعمالهم الصحفية. وكان لافتًا للنظر أن الأسماء نُشرت «ثلاثية» ورباعية هكذا: لويس حنا خليل عوض أو أمير إسكندر بولص. كان الأمر لافتًا للنظر من عدة زوايا ... فقد وردت هذه الأسماء ضمن القوائم المضبوطة مع جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٦٥م. ومن ناحية أخرى كان بعض الأسماء لا يمكن معرفته كاملًا إلا من ملفات المباحث العامة.

كان الدكتور حاتم قد عاد إلى السلطة معزَّزًا مكرَّمًا عام ١٩٧١م وكان يوسف السباعي قد أصبح سكرتير عموم الثقافة المصرية في مختلف المجلات إلى جانب رئاسة مجلس إدارة دار الهلال محل أحمد بهاء الدين، وأصبح صالح جودت رئيسًا لتحرير «المصور».

وتشكَّلَت لجنة النظام بالاتحاد الاشتراكي من بعض كبار المتهمين في جنايات القتل والاختلاس والعمل المشبوه مع جهات عربية وأجنبية.

وهكذا راحت القوائم تصدر الواحدة بعد الأخرى بتنسيق مكتمل الأركان الثقافية والأمنية والسياسية حتى وصل عدد المعزولين ١١١ كاتبًا وصحفيًّا يشكلون أعلى الكفاءات المهنية بغض النظر عن اتجاهاتهم الناصرية والماركسية في الصحافة المصرية. يكفي أن نذكر لطفي الخولي ويوسف إدريس وأحمد بهاء الدين ورجاء النقاش وصلاح حافظ

وعادل حسين وفيليب جلاب ونبيل زكي وحسين عبد الرازق وألفريد فرج وأحمد عبد المعطي حجازي وإبراهيم منصور وأمل دنقل وإبراهيم عامر وأمينة شفيق وخيري عزيز وميشيل كامل وعشرات غيرهم حتى ندرك حجم المذبحة التي قامت بها أجهزة الثورة الثقافية المضادة.

وقد تنصَّل حاتم والسباعي وممدوح سالم وسيد مرعي ومن بعده حافظ غانم، كلٌّ على انفراد، من ارتكاب الجريمة، بل وبدا بعضهم كما لو كان ضد المجزرة ويعمل على إيقافها.

ولكن الأيام كشفت الأصابع الملوَّثة سريعًا ... فقد أصدر السباعي بيانًا يُدين فيه حركة الطلاب ويؤيِّد إجراءات الدولة، وقَّع عليه إبراهيم الورداني وصالح جودت وعبد العزيز الدسوقي وبعض الموظفين في دار الهلال والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب وجمعية الأدباء. كذلك أصدر موسى صبري بيانًا مشابها.

وأدهشني، وغيري، لحد الفزع أن بعض الأسماء التي كانت بالغة الحماس للبيانات، قد غابت عن القوائم.

وتذكرتُ أن توفيق الحكيم كان قد أعطاني همسًا مقالًا مطوَّلًا بخط يده لأقرأه وأعيده له مشفوعًا برأيي. كان عنوان المقال «عودة الوعي» وهو مجموعة من الانطباعات الذاتية حول العشرين عامًا الأخيرة من حياة مصر والمصريين.

وقد أعدتُ المقال إلى صاحبه مع رسالة قصيرة قلت فيها ما معناه: أنت يا أستاذي لست مؤرِّخًا ولن تكون، فلو أنك كتبت هذه المعاني في مسرحية لما اعترض عليك أحد من حيث الشكل، إذ إن المقال لا علاقة له بالبحث العلمي فهو ليس أكثر من نتف متناثرة لا يعوزها الشتات. أما من ناحية الموضوع، فإن أعمالك المسرحية تكذِّب أفكارك، فقد كانت «السلطان الحائر» ومن قبلها «إيزيس» ومن بعدها «الصفقة» و«الأيدي الناعمة» و«شمس النهار» و«الطعام لكل فم» من الأعمال الدرامية التي واكبت التجربة الناصرية على نحوٍ يختلف تمامًا عمَّا تقوله في «عودة الوعي». بل إن مقالك في «الأهرام» عند انتخاب عبد الناصر للرئاسة الثانية، يشكِّل نقيضًا متطرِّفًا لما تقوله في مقالك الجديد. ولست أذكِّرك بما كتبتَ حين مات! ولكني سأذكِّرك بموقف عبد الناصر منك عام ١٩٥٧م حين راح أحمد رشدي صالح في «الجمهورية» ينال من أدبك بأقصى ما يمكن أن يُتهم به أديب وهو السرقة من غيره ... فما كان من الرئيس إلا أن قلَّدَك أرفع وسام في الدولة، ثم قال في تصريح شهير «لقد تأثَّرتُ برواية عودة الروح تأثرًا بالغًا». هكذا لست أراك قد

التزمت جانب الصواب فيما كتبت، ولست أرى داعيًا لنشره، وخاصة في الوقت الراهن؛ حيث تحاول أطراف عديدة أن تغتال ما تبقى من إيجابيات المرحلة الناصرية.

ثم دعاني توفيق الحكيم لمناقشتي فلم أزد شيئًا على ما جاء في رسالتي الموجزة. واحتدمت حركة الطلاب والمثقفين بعدئذٍ، وفوجئنا جميعًا باقتحام الحكيم للساحة، وفرحنا بحماسه المتوقد لما نادينا به آنذاك. وكان هو — إحقاقًا للحق وإنصافًا للتاريخ — الذي بادر بكتابة بيان المثقفين المصريين الذين أُبعدوا عن منابرهم لهذا السبب، فيما عداه هو ونجيب محفوظ.

وحدث أن وقف اتحاد الكتاب اللبنانيين وقفة شجاعة في مؤتمر تونس ضد القهر واضطهاد الرأي، فما كان من السيد يوسف السباعي — رئيس الوفد المصري ولم يكُن قد عُيِّن وزيرًا للثقافة — إلا أن طمأن أعضاء المؤتمر بأن الأمور تمضي في طريق الحل. وفي اليوم التالي وصلت جريدة «الأهرام» وفي صدر صفحتها الأولى صورة كبيرة للرئيس السادات وهو يصافح توفيق الحكيم ... وتحت الصورة بضعة أسطر فُهم منها أن الأمور تسير فعلًا في طريق الحل. ولكن توفيق الحكيم لم يذكر لأحد أنه في هذا اللقاء قال للرئيس: لقد كتبت شيئًا عنوانه «عودة الوعي» فأجابه الرئيس أنه يعرف وبدرج مكتبه نسخة! ولم تكُن بالطبع مفاجأة، فقد عمد الحكيم بعد مناقشتي وغيري حول هذا المقال، إلى نسخة بالاستنسل وتوزيعه في السر بغير توقيع. وكان صديقه ثروت أباظة من أكبر المتحمسين لتوزيع المقال.

ليس هذا مهمًّا.

وإنما المهم أن أشرف العقول المصرية بقيت مهدَّدة طيلة الأشهر السابقة على حرب أكتوبر في حياتها واستقرارها وأمانها حتى أعلن الرئيس السادات عشية الحرب «العفو العام» عن الصحفيين والطلاب، بإعادتهم إلى أعمالهم وجامعاتهم.

ولم يكُن ذلك ينهي الصراع، وإنما كان يعني تأجيله ... ولكن ظاهرة خطيرة لم تحدث قط في تاريخ مصر المعاصر، كانت قد حدثت خلال الأشهر الثمانية، وهي أن مجموعات متتالية من ألَمع الوجوه الثقافية غابت عن أرض الوطن كلويس عوض ومحمود أمين العالم وعلي الراعي وأمير إسكندر ونبيل زكي وأحمد عبد المعطي حجازي وإبراهيم عامر وسمير كرم وميشيل كامل ومحمود عزمي وأحمد حجي وحلمي التوني وطاهر عبد الحكيم ومحيي اللباد وسعد التايه وسعد زغلول فؤاد وإبراهيم سعد الدين وأمين عز الدين ومحمد أنيس ومحمد عجلان وألفريد فرج وعبد الرحمن الخميسي وجلال السيد

... وغيرهم عشرات من الأدباء والفنانين والصحفيين ممَّن دفعتهم ظروف العزل والقهر وانعدام الفرصة لخدمة الوطن بالرأي الحر وتولِّي «الخصيان والقردة والحواة»[١] مقاليد الأمور الصحفية والإعلامية، دفعتهم هذه الظروف مجتمعة لهذا «الاختبار» الجديد تمامًا على الساحة الثقافية المصرية. وقد كان اختيار الغالبية العظمى من هذه الأسماء هو «العمل» في بقية عواصم الوطن العربي كبيروت وبغداد والكويت والجزائر. والقلة القليلة هي التي اختارت الهجرة إلى أوروبا وأمريكا.

ولم يكُن ذلك أيضًا وأدًا للصراع، فقد تمسكت الأكثرية من الكتَّاب الوطنيين والتقدميين بمواقعها النضالية داخل مصر. كان يوسف السباعي قد أصبح وزيرًا للثقافة، وبالتالي تقدمت الحاشية المصطفاة من الجثث والرمم المتعفنة، إلى مواقع المسئولية المباشرة في مؤسسات وزارة الثقافة والمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب ودار الأدباء، بالإضافة إلى الأوضاع الجديدة التي طرأت على الصحافة المصرية منذ مذبحة لجنة النظام الشهيرة.

وأقبلت حرب أكتوبر المجيدة، ومعها أقبلت النتائج السياسية المعروفة. وكما أن هزيمة ٦٧ كانت فرصة اليمين للنيل من ثورة يوليو ومن الفكر الاشتراكي ومن المثقفين اليساريين ومن الصداقة العربية السوفييتية، فإن انتصار ١٩٧٣م كان أيضًا فرصة الرجعية لتسديد الضربة القاضية لقوى التقدُّم.

وكان إقصاء محمد حسنين هيكل عن «الأهرام» إشارة مبكِّرة إلى ما يُسمى بالعهد الجديد، فقد تم هذا الإقصاء وهيكل يحذِّر من الارتماء بين أحضان الولايات المتحدة الأمريكية. وكان مجيء علي أمين بالذات إلى المقعد الشاغر في «الأهرام» — ولو لبضعة شهور — إشارة حاسمة إلى هوية البديل.

بعدئذٍ أقبلت التفاصيل من قبيل استكمال الديكور وإعادة ترتيب البيت: عاد الأخوان أمين إلى قلعة شارع الصحافة الأمريكية والمسماة بـ «دار أخبار اليوم»، واستولى صالح جودت على «دار الهلال»، أما إبراهيم الورداني فقد «ارتفع» إلى أحد مراكز المسئولية في «الجمهورية»، وتوجَّه إحسان عبد القدوس إلى «الأهرام».

وبقيت قلعتان للفكر الوطني والاشتراكي هما «الكاتب» و«الطليعة».

[١] إشارة إلى قصيدة صلاح عبد الصبور الشهيرة.

واستخدم يوسف السباعي حقه «الشرعي» كوزير للثقافة وأقال أسرة «الكاتب» واستعدى السلطة على محرِّريها متهمًا أحدهم — صلاح عيسى — بالخيانة العظمى![٢] وانفردت العصبة التي كانت في الأمس القريب المتهم الأول في مذبحة «الرسالة» و«الشعر» والفتنة الطائفية، انفردت بالمنابر الثقافية كلها: «الجديد» لرشاد رشدي، و«الثقافة» لعبد العزيز الدسوقي، و«الكاتب» لصلاح عبد الصبور الواجهة الرخوة، و«الهلال» لصالح جودت.

أما «الطليعة» فقد أصبحت لها «ميزانيتها المستقلة» التي تضمن لها الموت البطيء.

ومنذ أوائل ١٩٧٥م حتى الآن تفرَّغ رجال الأمن في القبض على الكتَّاب الوطنيين والتقدميين الذين اختاروا «الداخل» ميدانًا للنضال.

ويبدو المشهد الثقافي المصري الراهن، وكأن مؤامرة ٦٥ قد أثمرت عام ١٩٧٥م فالمثقفون موزَّعون بين العواصم العربية والمعتقلات، أو هم في بيوتهم أو على أسِرَّة المستشفيات «مرتاحون» من العمل!

وهو مشهد مأساوي بحق، تبدو معه الأمور كما لو أنها آلَت إلى انتهاء، وأن الصراع قد حُسم لمصلحة اليمين والتخلف والغزوة الاستعمارية.

ولكنها — على وجه اليقين — نتيجة خاطئة! فالصراع ما زال محتدمًا، بل هو في أوج الذروة يدخل رحاب مرحلة جديدة، فما يظهر لنا من فوق السطح لا يدلنا على ما يضطرم به العمق.

إن الماء يجري تحت العشب.

[٢] وقد اعتقلت قوات الأمن صلاح عيسى وبعض أفراد أسرة «الكاتب» بناءً على توجيهات السباعي التي أثمرت مساعيها الحميدة في حادث بورسعيد حين أراد بعض الأدباء الشباب عرض مسرحية لهم فقبض عليهم، وكذلك حين ذهبت المباحث للقبض على الكاتب سعد كامل ولما لم تجده علَّق الضابط المكلَّف قائلًا «غريبة، لقد أخبرنا يوسف بك السباعي أنه هنا»!

خاتمة

لعل الحصيلة الختامية لهذه الصفحات القليلة تشير إلى جملة حقائق أبرزها:

(١) إن تناقضًا خطيرًا تجرثم في بناء ثورة يوليو، بين الواجهات الرسمية للثقافة والمنتجين الحقيقيين للثقافة، بين القائمين على «السلطة» الثقافية، ومبدعي «الحياة» الثقافية، وأنه في ظِل شعار «أهل الثقة لا أهل الخبرة» اعتلَت المواقع القيادية في الثقافة المصرية عناصر مضادة بدرجات متفاوتة لحركة الثورة.

(٢) ثورة يوليو لم تكُن مرحلة واحدة، بل عدة مراحل تطورت إليها الأمور بالفعل ورد الفعل ... وبالتالي فإن الكتاب والمثقفين الذين لمعوا في مرحلة ما لاتساق أفكارهم مع مضمونها لا يجوز الإبقاء على سلطاتهم القيادية في مرحلة أخرى تتناقض مع أفكارهم، ولكن هذا هو الذي حدث بكل ما يتوالد عنه من مضاعفات.

(٣) إن الانتهازية الأخلاقية التي تدفع شاعرًا أو كاتبًا لأن يتلوَّن كل يوم بلون جديد قد استطاعت في ظِل الثورة أن تكون قيمة وقانونًا، وأفرخت مع الزمن صفًّا طويلًا من المنتفعين غير المؤمنين، وهم في أعماقهم ضد الثورة حتى إذا سنحت لهم الفرصة للتعبير الحُر عن مكبوتاتهم وثبوا إلى مقدمة المظاهرة لتحطيم كل شيء!

(٤) إن غياب استراتيجية شاملة عن العمل الثقافي العام، وارتباطه بالتاكتيك السياسي المباشر والمرحلة، قد أفسح المجال واسعًا للارتجال والاعتماد على غير المتخصصين وغير الثابتين.

(٥) إن آفة الآفات هي أزمة الديمقراطية التي تسبَّبَت في أن يكون القرار العلوي هو كل شيء، أما الأرض وما عليها فقد تُركت للقهر والمصادفات.

هنـــداوي